روايات رومانسية عالمية

عبير

ماري ويبرلي

نهر الذكريات

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية

عبير

نهر الذكريات

هذا
الكره هل هو الحب؟
أليسون تأرجحت طويلاً بين النار والماء
باحثة عن نفسها. نيال، الرجل الوحش
بنظرته الحديدية اغلق عليها ابواب قلبه . انه
لص سرق بيت طفولتها، وخطف ذكرياتها، وحرق
اوراق ماضيها، لا شيء يجمعها به. والشفقة التي تحسها
نحو ابنه الصغير اندريه لا تغني بأي شكل الخضوع
لسلطانه . انها تكرهه.. لا بل تحبه...أليسون
الجميلة عالقة في شباك نيال . بينهما قبلة
قديمة، هل تكفي ذكراها لأزالة
الرماد عن الجمر ؟

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٢٧٨٦٤١٨

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
BLACK NIALL

www.liilas.com/vb3

١ ـ شمس في الذاكرة

لم يعرف أحد أن نيال ماكين قادم الى بلدته شيلبينغ، الى أن وصلها فعلاً في ذلك اليوم الصيفي العاصف.

كانت اليسون ماكاي جالسة في غرفة الصف عندما شرد انتباهها عن الدرس الذي كان ويلي ماكلويد يشرحه لستة من زملائه التلامذة. ومن مقعدها المرتفع لمحت ظلاً ازرق اللون يمر عبر الاشجار مما جعلها تسرع نحو النافذة.

قالت للطفل الذي توقف عن الشرح مستغرباً :

« تابع القراءة يا ويلي، فنحن نستمع اليك ».

انتظرت حتى عاودت السيارة الزرقاء الظهور. لم تستطع أن تلمح شيئاً داخل السيارة لأن المطر الغزير كان يهيمن على كل شيء. ترى من الذي يقصد القرية في منتصف آخر الاسبوع من حزيران ؟ فالمدرسة تقع خارج الطرق التي يقصدها السياح، وهي معزولة تماماً باستثناء الدكاكين المتنقلة التي تزورها مرتين في الأسبوع.

فجأة التمعت السماء ببرق قوي أعقبه صوت الرعد القاصف. وعلى هذا الضوء الباهر شاهدت السيارة مرة أخرى وهي تصعد الطريق الوحيد في المنطقة ثم تقف أمام لوك شيل الذي بدا غامضاً وغريباً في هذا الشتاء الغزير.

ارتجفت اليسون لاحساسها بقرب وقوع مشاكل غير محددة، وأحست بالبرد رغم ان قاعة الصف كانت دافئة تماماً. لمحت شكل رجل يخرج من السيارة ثم يقطع الشارع مسرعاً قبل ان يختفي في أحد الاكواخ

هناك. أعتقدت أنه دخل منزل فيرجوس ماكيين ، لكنها لم تكن متأكدة.

خيّم صمت شامل على القاعة، فعادت اليسون الى مكانها وهي تقول :

« أحسنت يا ويلي، كانت قراءتك ممتازة ».

نظرت اليسون الى ساعة يدها، انها الرابعة إلا الربع تقريباً. لم يعد هناك مجال للمزيد من الدروس، بالاضافة الى أن الأولاد باتوا منزعجين من العاصفة، بل ويبدو على أثنين منهما الخوف الشديد. توجهت اليسون الى الطاولة وقالت :

« هيا أيها الأولاد، أحملوا معاطفكم وسآخذكم الى بيوتكم ».

أبتسمت وهي تراقب الأولاد وسرورهم. من حسن الحظ أنها جاءت بسيارتها عند الصباح، فمع أنها تعيش على بعد ميل واحد فقط من المدرسة إلاّ أن هذا المطر الغزير ما كان ليتركها تسير ولو لأمتار قليلة.

تأكدت اليسون من أن النار في المدفأة خامدة، ثم اطفأت الأنوار وجمعت الأولاد في المدخل في حين فتحت هي أبواب السيارة لهم. وواحداً بعد واحد ودّعت الأولاد الفرحين على أبواب بيوتهم الممتدّة على طول الطريق الوحيد. واحدة من التلامذة، فيونا ستيوارت، تعيش في البيت المجاور لمنزل فيرجوس ماكيين، لذلك قالت اليسون وهي تفتح لها الباب :

« يبدو ان السيد ماكيين يستقبل بعض الضيوف ».

أستغربت اليسون النظرة غير الطبيعية على وجه الفتاة. صحيح أن فيونا كانت في العاشرة من عمرها فقط، إلاّ أن كل سكان القرية يعرفون التفاصيل الشاملة عن النزاع. قالت فيونا :

« هذا صحيح يا آنسة اليسون ».

كان الكوخ مضاء. تظاهرت اليسون بأنها تراقب فيونا حتى تصل الى بيتها، بينما كان نظرها في الواقع مركزاً على القنديل الزيتي الذي ينير الغرفة الأمامية من منزل السيد ماكيين. وطيلة الوقت كان التساؤل حول هوية الضيف يلّح على فكرها ومشاعرها.

لكن اليسون نسيت كل شيء عندما وصلت الى البيت، فهناك أمور

أخرى كثيرة تشغل بالها. سمعتها جسي وهي توقف السيارة أمام الباب الخلفي، فأسرعت تفتح لها الباب وهي تقول :

« هيا بسرعة يا ابنتي... هيا ».

قطعت اليسون المسافة القصيرة ركضاً. وعندما وقفت الى جانب المرأة ذات الشعر الأبيض الناصع، قالت :

« يا له من يوم قاس يا جسي. هل الشاي جاهز ؟ ».

« الماء على النار. لحظات ويكون قدح الشاي أمامك. لكن قبل كل شيء أريد أن أحدثك قليلاً، هيا اجلسي ».

اعترضت اليسون على جسي التي حاولت ان تجلسها وقالت :

« أنا سأصنع الشاي... ».

« لن تفعلي ذلك. هناك شخص واحد في هذا البيت يعرف كيف يصنع الشاي... وهذا الشخص هو أنا ».

ابتسمت اليسون من على كرسيها الهزاز وقالت :

« آسفة يا جسي، لا أعرف ما يمكن أن نفعل من دونك ».

وكانت تعني كل كلمة تقولها. راحت تراقب يدي العجوز وهما تعملان بثقة وخفّة في اعداد الشاي. فقد عاشت جسي مع العائلة منذ ما قبل مولد اليسون، بل حتى قبل مولد أخيها اليك الذي يكبرها بخمس سنوات. والآن، بعد وفاة والدها وزواج اليك في كندا وتبخّر ثروة العائلة بالكامل... فان جسي ما تزال معهم في الضراء كما كانت في السراء.

وبقوة تحسد عليها، استطاعت جسي أن تقف الى جانب الأم عندما قتل الأب في حادث طائرته وهو في رحلة عمل الى يوغوسلافيا قبل ثلاث سنوات، كان الأب على وشك ان ينقل شركته الهندسية الى مرحلة اخرى من النجاح، مرحلة كانت ستعني الثروة والأمان، بعد خيانة غير متوقعة من شريك محتال.

المال الذي كان بين يدي العائلة ابتلعته ترتيبات الدفن بعد الحادث المفجع... ومع ذلك ظلت جسي معهم. وكم تتمنى اليسون أن تظل معهم طيلة حياتها، فهي تحب مدبّرة المنزل وترتاح اليها كثيراً.

وضعت جسي ابريق الشاي من يدها وقالت :

« المسألة تتعلق بأمك. فهي تتصرف بشكل غريب هذه الأيام. تتجول في البيت على غير هدى بدل الاهتمام بلوحاتها الفنية. وقد لاحظت على وجهها تلك النظرة الحالمة، النظرة نفسها التي تحملها عندما تكون قد وضعت في رأسها فكرة ثابتة. الواقع أنني لا أعرف ماذا تفكر، لكنني يمكن أن أخمّن ».

هزت اليسون رأسها وقد أحست قلبها يغرق بين اضلعها :

« البيت ؟ ».

تمعّنت جسي في وجه اليسون بحدّة وقالت :

« أجل. فهي تواصل الحديث منذ مدة عن أن البيت كبير ويكلّف الكثير من الأموال لصيانته... وما شابه ».

قاطعتها اليسون بأسى واضح :

« أعرف ذلك. إنها تثير الموضوع كل صيف عندما تكشف الشمس ما حلّ بالبيت من الخارج. آه يا جسي، ماذا يمكن أن أفعل ؟ ».

تلفّتت جسي حولها قائلة :

« الله وحده يعلم يا بنيتي. إنها على حق. ماذا تفعل ثلاث نساء وحيدات في هذا البيت الضخم ؟ المدخول الوحيد هو المال الذي تكسبينه وما قد تبيع أمك من رسوم... وهذا المدخول لا يكفي ».

ردّت اليسون بانفعال يائس :

« لكنها لا يمكن أن تبيع البيت، فهو متوارث في العائلة منذ اجيال ».

توقفت عن الكلام وكأن فكرة طارئة داهمتها ثم اضافت :

« في كل حال، من سيشتري البيت ؟ فالمعروف ان مثل هذه البيوت الضخمة غير رائجة في السوق. آه يا جسي... »

أغمضت عينيها براحتي يديها وهي تقول :

« اتمنى ان نكون مخطئين ».

« صحيح. لكن يجب ان نكتشف الحقيقة. من الأفضل أن تسأليها لكن بلطف يا اليسون. فأنت تعرفين بأنها تضطرب فوراً اذا ما تعرضت لأية مشاكل ».

اغتصبت اليسون ابتسامة صفراء وقالت :

« سأفعل ذلك طبعاً. أشكرك يا جسي لأنك اخبرتني. لعلنا نستطيع ايجاد مخرج، من يدري ؟ ».

رمت اليسون هذه العبارة بخفّة، لكن قلبها كان مثقلاً بالأحزان. فهي تحب بيتها بكبرياء مجنونة. فقد كان منزلاً ريفياً ضخماً مبنياً بالحجر الصخري، موقعه يواجه الشرق بحيث تحتضنه الشمس كل صباح، ومع ذلك تحميه التلال المجاورة من العواصف والأمطار. كما تحيطه الجبال والغابات في موقع يعتبر من أجمل مناطق اسكتلندا. وبينما هي في طريقها من المطبخ الى القاعة الرئيسية، اضاء البيت برق خاطف اعقبه رعد قوي... فازداد اضطراب اليسون وخوفها.

كان على اليسون أن تنتظر حتى ساعة متأخرة من الليل كي تعرف الحقيقة التي أنهت كل التكهنات. كانت جالسة في مقعدها المريح في غرفة الجلوس وهي تراجع بعض الدفاتر المدرسية، وعندما رفعت عينيها الى أمها لمحت على وجهها تلك النظرة الحالمة التي تعني الكثير. إنها النظرة التي تكشف عن كل مكنونات الأم. لذلك لم تعد تحتمل المزيد. وضعت الدفاتر جانباً وقالت بهدوء :

« أمي أرجوك أن تحدثيني ».

فتحت السيدة ماكاي عينيها على اتساعهما، وهي تشعر بالذنب أكثر من اي وقت مضى. أحست اليسون بدفقة حب عارمة لأمها، وكادت أن تغص بالبكاء لكنها تمالكت نفسها بسرعة. بدت الأم متعبة ومهزومة بحيث اجبرت اليسون على استرجاع صورتها عندما كانت مهندسة ديكور ناجحة جداً زارت معظم اقطار العالم مع شريكة لها قبل ان تتعرف الى والدها في استراليا... بعد ذلك عادت الى اسكتلندا وتزوجته وتركت اعمالها لتصبح ربة بيت مثالية. ومنذ ذلك الحين لم يسمع احد منها كلمة أسف أو ندم على الثروة الكبيرة التي كانت ستحصل عليها فيما لو استمرت في مهنتها. أما الآن فتكتفي بالرسم الزيتي، وفي بعض الاحيان بيع اللوحات الى مردوخ ايمري، وهو صديق قديم للعائلة يملك محلا فاخرا لبيع التحف القديمة واللوحات الفنية.

« أخبرك عن ماذا ؟ ».

لكن ارتجاف يدها وهي تداعب خدها كشف كل ما تحاول اخفاءه.

توجهت اليسون لتجلس على الأرض أمام أمها ثم وضعت رأسها في حضنها وقالت :

« آه يا أمي . أنا وجسي قلقتان عليك تماماً . هناك شيء ما يدور في تفكيرك، ولا بدّ لك من الحديث عنه عاجلاً أم آجلاً فلماذا لا يكون الآن ؟ ».

لم يكن للأم مهرب من المنطق الواضح في كلام أبنتها. تنهّدت بعمق بينما يدها تداعب شعر اليسون بحنان :

« حسناً. انه شيء كان يجب ان أحدثك به قبل الآن لأنني لا أحب أن أخفي شيئاً عنك أنت خاصة».

فجأة تهدّج صوتها وعادت تبكي، لكنها تمالكت وتابعت تقول :

« لقد وصلت الأمور الى حد بات معه من المستحيل المضي في الوضع الحالي أكثر . علينا أن نبيع البيت ».

نظرت اليسون الى أمها وهي تجاهد كي تحبس دموعاً ترقرقت في عينيها عندما تأكدت مخاوفها :

« هذا ما فكرنا فيه. لكنني أحب هذا البيت كثيراً ».

ردّت الأم بحنان واضح :

« وأنا احبه ايضاً. لو تعرفين كم فكرت في المسألة قبل اتخاذ القرار ؟ كان عليّ أن أخبرك منذ مدة، لكنني كنت اتأمل حدوث . . . أنت تعرفين كيف أفكر ».

هزّت اليسون رأسها وهي تشعر بالحزن لأمها ولنفسها أيضاً.

تابعت الام :

« الواقع أنني بحثت المسألة مع السيد جون ستيوارت ».

وجهّت اليسون نظرة حادة الى أمها. فمع أن جون ستيوارت هو محامي العائلة ومن الطبيعي ان تبحث الأم معه موضوع البيت، إلاّ أن ذكر اسمه جعل عملية البيع تبدو أكثر الحاحاً.

« وماذا قال لك ؟ ».

ابتسمت الأم بضعف وقالت :

« لن تصدقي الأمر، هناك شخص ما مهتم بشراء البيت. لم يخبرني السيد ستيوارت عن هوية هذا الشخص، حتى أنني لم أعرف ما اذا كان

رجلاً او امرأة، والظاهر أن هذا الشخص اتصل به قبل حوالى سنة وأبلغه أنه مهتم بالبيت، ويريد أن يعرف حالما نقرر طرحه للبيع . ولا شك أن هذا الشخص يعرف البيت. المهم أن المحامي اتصل بي أمس وقال لي ان ذلك الشخص سيتصل بنا قريباً ».

حولت الأم نظرها الى المدفأة، وتابعت تقول وهي تربّت على كتف اليسون :

« هذا هو السبب الذي جعلني متوترة خلال الأيام القليلة الماضية. فأرجو أن تسامحيني، إذ ليس أمامي إلاّ هذا السبيل ».

هزّت اليسون رأسها بعنف :

« لا. لا بدّ ان هناك طرقاً اخرى ».

« ماذا ؟ أتمنى لو أجد حلاً آخر. أنت تعرفين كيف يكون البيت في الشتاء. . . يصبح كثلاجة كبيرة جداً. كان علينا ان نركّب تدفئة مركزية منذ مدة. الأمر كان محتملا عندما كان البيت مليئاً بالزوار والنار في كل غرفة . . . لكنه لم يعد كذلك. نحن وحدنا في البيت، وجسي أصبحت كبيرة في السن. الى متى تظنين أنها ستظل قادرة على العمل في ذلك المطبخ الشاسع ؟ صحيح أنها لا تشكو ولا تتلكأ . . . لكن التعب سيظهر جلياً بأسرع مما نظن ».

هدأت العاصفة. وانعكس الهدوء على مزاج اليسون التي بدت ساكنة وكأنها تخلّت عن كل معارضتها. تنهّدت وحولت نظرها باتجاه الكلب راستي الذي كان متمدداً بالقرب من المدفأة. مدت اليسون يدها تداعبه، وسألت أمها من دون أن تنظر اليها :

« والى أين سنذهب يا أمي ؟ »

« كنت أتفحص منذ يومين الكوخ الملحق بالبيت والأراضي المحيطة به. صحيح انه بحاجة الى عمل كثير لأنه مهجور منذ أن تخلينا عن البستاني العامل فيه، إلاّ أنه يصلح لنا نحن وللكلب ايضاً ».

رددت اليسون كلام أمها :

« . . . وراستي ايضاً. لكن هل يمكننا بيع البيت دون الكوخ ».

أجابت الأم باستغراب :

« طبعاً. الواقع انهما منفصلان. وسوف نحتفظ بالحديقة الصغيرة

المحيطة بالكوخ، وفي الوقت نفسه نطل على الوادي تماماً كما نطل من هنا».

كل ما قالته الأم كان صحيحاً. لكن اليسون تساءلت في سرها:

هل تحتمل العيش في الكوخ قريباً من البيت الذي يعيش فيه غرباء؟ هذا هو السؤال الذي لا جواب له الآن.

ذهبتا الى النوم دون أن تخبر اليسون أمها عن الشيء الآخر الذي يقلقها هذه الأيام، اذ يكفيها الألم الذي تحملته فيما يتعلق بالبيت. فالمدرسة التي تعلم فيها اليسون ستغلق بعد فصل الخريف. ومن سبعة تلامذة تعلمهم اليسون هناك خمسة سيغادرون لأنهم أصبحوا فوق العاشرة وهذا يتطلب انتقالهم الى مدرسة أخرى، أما التلميذان الآخران فسينتقلان الى مدرسة تقع على بعد خمسة عشر ميلاً. وبما أنه لا يوجد أطفال في أعمار مناسبة لصفها، فان الادارة قررت اغلاقه لمدة اربع سنوات، وربما الى الأبد. ومع أن اليسون ستتلقى قراراً بالنقل إلاّ أن المدرسة الجديدة ستكون بعيدة جداً. وكل ما تتمناه الآن حدوث معجزة تتمثل في انتقال عائلتين فقط الى شيلبينغ لكل منهما ثلاثة او اربعة أطفال، وهذا كفيل بانقاذ وظيفتها.

تنهّدت اليسون بعمق وهي تطفىء نور غرفتها... وعبثاً حاولت النوم.

كان اليوم التالي نهار الجمعة، يوماً مشمساً ودافئاً وكأن عاصفة الأمس لم تكن قط. وبينما كان الأولاد يلعبون بعد الظهر في باحة المدرسة، شاهدت اليسون مرة أخرى السيارة الزرقاء التي رأتها أمس وهي تتوقف مجدداً أمام منزل فيرجوس ماكين. كانت قد نسيت تماماً هذا الضيف الغريب لانشغالها بقضايا البيت والمدرسة الملحة. اقتربت من الحائط الحجري الصغير الذي يحمي الصغار من المنحدر المطل على القرية، وراحت تتأمل السيارة بفضول. خرج رجل من سيارة الفورد القديمة، وقبل أن يعبر الطريق ألقى نظرة خاطفة باتجاه المدرسة، كانت كفيلة باحراج اليسون مما جعلها تبتعد عن الحائط وكأنها شوهدت بالجرم المشهود. ومع ذلك كانت راغبة في معرفة هوية الرجل. لو أنه أحد أبناء فيرجوس لكان الخبر قد عمّ القرية فوراً، لكنّ شيئاً لم يذع بين الأهالي. لم تستطع أن تلمح وجه الرجل

الغريب، ومرة أخرى القت نظرة الى الكوخ الذي يعيش فيه فيرجوس ماكين وحيداً، بعد رحيل أبنائه الأربعة اليستير وايان ودانكان ونيال. الابنان الاكبران يعيشان في نيوزيلندا ويقال انهما يعملان في تجارة الماشية. أما دانكان ونيال فقد غادرا القرية منذ سنوات للعمل في السفن التجارية... نيال الأسود كما يسمونه، الابن الأقسى بين اربعة يشكلون عائلة ماكين التي عاشت في نزاع مستمر منذ اكثر من قرن مع عائلة ماكاي. اليسون تتذكر نيال فقط لانه كان أصغر أخوته، من عمر أخيها اليك تقريباً وزميله في الصف نفسه أيضاً. زميله؟ صحيح، لكنهما كانا يتقاتلان دائماً. فكرت اليسون أن الكراهية موجودة في الدم، بحيث كانت العائلتان على نزاع دائم ومستمر منذ العام ١٨٦٩ عندما كانتا اكبر عائلتين في القرية والأرياف المحيطة بها. ففي أحد أيام ذلك العام، وجد هيكتور ماكين ودومنيول ماكاي نفسيهما يتعاركان في غرام امرأة واحدة عمدت الى تأجيج نار الحب والحقد بين الرجلين معاً. وقد تأكد فيما بعد ان الشابين كانا ضحية سحر ايزابيل القاسية. ومهما كانت الحقيقة فان الرجلين قررا ذات يوم التوجه الى التلال لتسوية المسألة بينهما... ذهبا ولم يعودا ابداً.

بعد عدة أيام، نزل أحد الرعاة من كوخه الجبلي ليروي قصة مرعبة عما شاهده. في أحد الأيام، ذهب يبحث عن بعض الاغنام الضالة ناحية الجبل المطل على البحر بانحدار شديد الارتفاع، وهناك شاهد الرجلان يتقاتلان بضراوة ووحشية. كانت الأرض مغطاة بصخور وحصى صغيرة تجعل الثبات عليها صعباً... وبينما هو يراقب انزلق الرجلان واخذا ينحدران صوب البحر وهما مستمران في القتال. وعندما وصل الى مكان المعركة كان الأوان قد فات. ففي الأسفل، لم يكن يسمع إلاّ صوت ارتطام الموج بالصخور الحادة وزعيق طيور البحر الباحثة عن طعامها.

ولما انتشرت قصة الراعي في القرية، تبادلت العائلتان التهم والكلمات القاسية. ومنذ ذلك اليوم انقطعت العلاقات بين الطرفين واندلع الحقد في نفوس الجميع. وبالطبع كانت هناك قصص غير قصة مصرع الشابين تتعلق بتجارة البحر والتهريب وغيرهما. لكن أحداً لم يخبر اليسون عن الحقيقة تماماً. لعل الخجل كان يجعل كل طرف يحجم عن المجاهرة

بالواقع. واليسون نفسها لم تتجرأ وهي طفلة على طرح الأسئلة، ودائماً كانت تتساءل عمّا اذا كان اليك قد عرف الحقيقة أم لا.

البيت الذي تعيش فيه اليسون الآن هو بيت العائلة قبل زمن طويل من النزاع. أما فيرجوس ماكيين، وهو آخر فرد من العائلة باق في القرية، فيعيش في كوخ عاش فيه من قبل ابوه وجده. وبيت ماكيين، الذي كان يجاور بيت ماكاي، فقد دمر نهائياً في حريق كبير اندلع في العام ١٨٧٢. وتقول الروايات ان ثروة العائلة احترقت في البيت. ولم يبق من أثر البيت المحترق إلاّ بعض الأحجار المتفرقة، في حين نمت اعشاب وأشجار بريّة في المكان برمته.

أحست اليسون بقشعريرة برد تجتاح جسمها بفعل الذكريات الأليمة التي استرجعتها، لذلك توجهت الى الأطفال تشاركهم تمارينهم الرياضية بحماس وكأنها تريد ابعاد اشباح الماضي عن فكرها، لكن عقلها رفض التلبية في الدروس اللاحقة. كانت تشعر بالضيق الشديد، ربما لعلمها بأن المدرسة ستغلق، او ربما لان البيت سيذهب الى الأبد مع العائلة، أو ربما للسببين معاً. اصابها التفكير الشديد بصداع حاد استمر بالحاح رغم تناولها قرصين من الأسبرين، وما ان جاءت الساعة الرابعة حتى شعرت بالارتياح لأن العمل قد انتهى وبات باستطاعتها ان ترتاح. ومن مقعدها خلف الطاولة راحت تراقب الاطفال وهم يغادرون القاعة بسرور كمن أطلق سراحه من سجن مظلم.

في الجهة الأخرى من الوادي، استطاعت اليسون أن ترى من مقعدها جانباً من البيت، السقف القرميدي وبعض غرف النوم، فعادت اليها كل مخاوفها. فكرت بصوت خافت، كيف يمكن ان اتركه ؟ فطفرت دموع الحزن والألم الى عينيها. لقد كانت أمها على حق بينما تصرفت هي بطيش وعاطفية. انهم لا يستطيعون مواصلة العيش في البيت بالمدخول الخفيف المتوفر لديهم. فالحب العميق الذي تشعر به تجاه البيت لم يعمها عن رؤية اطارات النوافذ المتساقطة أو قرميد السطح الذي يحتاج الى ترميم سريع، حتى الحديقة تحولت الى يباب بعد ان اضطروا الى الاستغناء عن البستاني. حاولت اليسون وأمها جهدهما، لكنهما كانتا تخوضان معركة خاسرة مع المساحات الواسعة التي غزاها اليباس.

تنهّدت اليسون بعمق ثم أخرجت مرآة صغيرة وتطلعت فيها الى عينيها. يجب ان لا يرى أحد آثار الدموع عندما تعود الى البيت. حدّقت طويلا في المرآة فلم تر سوى عينين دامعتين. ولكنّ الذين ينظرون اليها يجدون اكثر من ذلك. . . يجدون الجمال الهادىء الذي ينير ملامحها بحيث يجعلها محط أنظار المجتمع الذي تتواجد فيه. كانت شفتاها حمراوين ممتلئتين، وعيناها زرقاوين برموش سوداء كثيفة.

وضعت المرآة في حقيبة يدها وتناولت مشطاً صغيراً سرحت به شعرها المجعّد من دون انتظام ثم جالت في الغرفة لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

زال الصداع الحاد عندما بدأت اليسون سيرها نزولا نحو القرية. كان عليها أن تعرج على مكتب البريد للحصول على بعض الأوراق الرسمية والطوابع لحسي التي تراسل العديد من الأقارب في مختلف انحاء العالم. وقد شعرت اليسون بالارتياح وهي تحيي أهل القرية على طول الطريق، مما اعاد اليها بعض السعادة المفقودة.

يقع مكتب البريد الذي يشكل ايضاً مخزناً لبيع الخضار الطازجة والبضائع المختلفة، في الطرف الآخر من القرية على الطريق المؤدي الى بيت اليسون. وكانت قد استدارت قليلا لتحيي السيد ماكينتر قرب مكتب البريد، ولما اتجهت مجدداً نحو المكتب وجدت نفسها وجهاً لوجه مع رجل خرج لتوه من الداخل. للحظات، شعرت ان توازنها قد اختل، لكن يدين قويتين أمسكتاها. . . فنظرت الى صاحبها فوراً. وما ان لمحت وجهه حتى علتها الدهشة فجذبت نفسها بعيداً عنه وكأنها تهرب من أفعى سامة. فالرجل الذي اصطدمت به، والذي كان يرميها بنظرة غريبة، لم يكن إلاّ نيال ماكيين. نيال ماكيين الأسود نفسه، وعندما تمالكت نفسها، ابتعدت اليسون مسرعة ودخلت الى مكتب البريد المعتم وقلبها يخفق بشدة لكنها ظلت تشعر أن نظراته تلاحقها من خلال النافذة.

« عشرة مغلفات بريد جوي، يا سيدة فنليسون ».

يا لها من صدفة، من بين كل ابناء ماكيين يعود الأصغر الى بيت أبيه، وهو الابن الذي تبغضه أكثر من الباقين.

حدّقت السيدة فنليسون بعينيها الحادتين في وجه اليسون وقالت :

« هذه المغلفات يا آنسة ماكاي. هل رأيت من كان هنا قبل لحظات ؟ انه نيال، ابن فيرجوس ماكيين ».

أجابت اليسون بهدوء :

« نعم لقد رأيته ».

عضت السيدة فنليسون على نواجذها وهي تقول :

« كنت قد بدأت انسى. مضى وقت طويل على رحيل الشباب الى الخارج، بحيث بدا وكأن النزاع قد انتهى »

ابتلعت ضحكة خفيفة ثم تابعت تقول :

« والآن عاد كل شيء ».

ردّت اليسون مبتسمة وهي تجاهد كي تبدو طبيعية :

« هذه هي الحياة. أعتقد أن النزاع صار من الماضي ».

وبينما كانت اليسون تدفع ثمن المغلفات قالت السيدة فنليسون :

« لا شك في ذلك. في كل حال يجب أن اذهب الآن لارسال هذه البرقية. أعتقد أن الريو في اميركا الجنوبية، اليس كذلك ؟ ».

« الريو ؟ نعم، في البرازيل ».

تناولت اليسون المغلفات وشكرت موظفة البريد وأسرعت هاربة. في الخارج، لم يكن هناك أثر لنيال ماكيين، فتنفست الصعداء. كان يكفي أن تراه حتى يسود يومها، لكن أن تصطدم به أيضاً، فهذا أمر لا يحتمل. أسرعت نحو البيت محاولة أن تعيد الى ذاكرتها تفاصيل آخر مرة شاهدته فيها قبل تسع سنوات.

عادت الأحداث الى ذهنها بوضوح تام. كانت في السادسة عشرة واليك في الواحدة والعشرين. وقد سمح لها اهلها يومها بحضور حفلة راقصة في نادي القرية شرط أن ترافق شقيقها في طريق العودة. القاعة العامة كانت مكتظة في ذلك المساء الصيفي الدافىء، والجميع يتمتعون بالموسيقى والرقصات المنوعة. وكم كان سرور اليسون كبيراً عندما اكتشفت انها محبوبة من الجميع اذ لم تجلس الى طاولتها إلّا لماماً في حين أمضت الوقت كله في الرقص. ومما زاد في سرورها رؤية نيال ماكيين في مطلع السهرة وهو منعزل قرب الباب وكأنه غير واثق من نفسه وسط هذا الجمع. كان يرتدي بزة زرقاء مهلهلة فبدا غريباً بين كل هؤلاء الناس. لاحظت اليسون أنه

يراقبها، لذلك قررت أن تؤكد له وللجميع بأنها تتمتّع بوقتها الى أبعد الحدود.

لعلها تصرفت بدافع انثوي دفين لم تكن تفهم سره آنذاك، ففي كل مرة كانت تمر أمام نيال كانت ترى عينيه مسمرتين عليها. وامعاناً في التشفي كانت تطلق ضحكاتها عالياً في القاعة وتزداد حماساً في الرقص وقد بات المكان بالنسبة لها قطعة من أرض الاحلام في ليلة لا تنسى.

وكما في قصة سندريللا، كان لا بدّ لليل أن ينجلي. وعندما قررت اليسون العودة الى البيت بحثت عن شقيقها لمرافقته، لكنها لم تعثر عليه. وظلت لفترة بانتظار عودته، كانت خلالها تلوم نفسها لأنها لم تنتبه لوجوده اكثر. وبينما هي هكذا، سمعت صوتاً من خلفها :

« هل تريدين أن أوصلك الى البيت ؟ »

فالتفتت لتجد شاباً تعرفه من القرية المجاورة اسمه جوني جوردون.

« لا، شكراً لك ».

بدأت تحس بالانزعاج. فالتمتع بالرقص في قاعة مزدحمة شيء والسير الى البيت في هذا الظلام مع شخص سمعته غير حميدة شيء آخر. اضافت مخاطبة جوني :

« سالاقي اليك في منتصف الطريق ».

ودون ادنى تفكير، لوحت له بيدها وسارت باتجاه البيت وهي تتساءل : اين أنت يا اليك ؟

ولما ابتعدت عن القاعة خففت اليسون من سيرها. لم تكن خائفة من الظلام، بل هي متمتعة بهذا المساء الصيفي. كان عقلها مشغولاً بترتيب بعض العبارات التي ستقولها لأخيها ساعة تراه عندما احست بوقع خطوات شخص خلفها، فبدأت تسرع في السير مجدداً. وصلت الى طريق منعزل يؤدي الى الحقول الملحقة ببيتها، فدخلته مسرعة. كسرت أحد أظافرها عندما قفزت فوق جدار ريفي صغير يقع على حدود اراضي البيت. ومن ثم وجدت نفسها وسط أشجار الصنوبر التي راحت اغصانها تعلق في شعرها وثيابها. ثم سمعت فجأة صوتاً جعلها تتوقف وتستدير الى حيث بدا أن عراكاً عنيفاً يدور بين شخصين في ظلمة الليل. وجاءتها أصوات لكمات وصرخات وصدى ارتطام جسد بالارض، ثم أنين الم من أحد

المتعاركين. . . واخيراً وقع خطوات شخص يهرب الى الطريق العام. هل هذا اليك ؟ هل يعقل ان يكون شقيقها قد شاهد شخصاً ما يلاحقها فتعارك معه ؟ كانت هذه الاسئلة تلح على ذهن اليسون وهي تنتظر في مكانها. لكن احداً لم يأت، ولم تعد تسمع أية أصوات.

« أليك ؟ »

نادت اليسون اولاً بصوت خافت ثم رفعت صوتها اكثر عندما لم تسمع اي جواب. وبسرعة هرعت الى حيث سمعت المعركة، لكنها توقفت فجأة عندما لمحت عدوها اللدود نيال ماكيين بالقرب من جدول مائي في منطقة مكشوفة وهو يفرك قبضتيه. وعلى الفور انقضت عليه وقد تذكرت المعارك الدائمة بينه وبين اخيها.

صرخت في وجهه بغضب شديد :

« ماذا فعلت بأخي ؟ »

استدار نحوها بهدوء. وتذكرت اليسون كيف أنه بدا آنذاك مختلفاً، اذ لم يعد هو نفسه الشاب الخجول الذي ظهر في القاعة بل ظهر الآن قوياً ناضجاً وواثقاً من نفسه. نظر اليها ملياً، ولاحظت اليسون في عينيه نظرة شماتة وتشف وهو يقول :

« لم افعل شيئاً بأخيك. الذي هرب كالأرنب الآن هو جوني جوردون وقد كان يلاحقك طوال الطريق ».

« لا اصدق كلامك هذا ».

لكنها لاحظت قطرات من الدم على ذقنه نازفة من جرح في شفته السفلى.

ردّ وهو يمسح الدم بمنديله :

« هل تعتقدين أنني أهتم بما اذ كنت تصدقين أم لا ؟ »

« ماذا تقصد بكلامك هذا ؟ »

اجابها بجفاء :

« لقد اصبحت في السادسة عشرة، وعليك ان تعرفي معنى الكلام ».

حبست اليسون انفاسها بغضب وقالت :

« كيف تجرؤه على هذا الكلام. لو أن اليك هنا لجعلك. . . »

ردّ بضحكة ساخرة :

« لكنه ليس هنا. هل تعتقدين أنني أخاف منه ؟ كان عليك ان تري ماذا فعلت بجوني قبل قليل ».

تظاهرت اليسون بالهدوء وقالت :

« هذا كل ما تفكر فيه، القتال فقط، فأنت تفتعل المعارك دائماً ».

« هذا غير صحيح، ليس دائماً »

اقترب نيال من اليسون وحاول ملامسة وجهها، لكنها انتفضت ولطمته على يده الممدودة وهي تقول :

« إياك ان تلمسني. إياك أن تحاول أبداً »

ردّ بسخرية دون أن يبدي أية علامة تأثر :

« انك لا تمانعين في أن يلمسك الآخرون خلال الرقص. والحقيقة أنني أعتقد أنك كنت تتمتعين بذلك ».

وفجأة انقض عليها، فأخذها على حين غرة بين ذراعيه. . . ودون أن تدري وجدت نفسها في عناق طويل معه. ولما أطلق سراحها، ظلت مصدومة للحظات قبل أن تستعيد وعيها وتوجه لطمة شديدة الى وجهه. ولم تستطع أن تهرب، إذ أن ذراعيه امتدتا واوقفتاها في مكانها. اتسعت حدقتاها خوفاً لما تعرفه عنه من طباع متوحشة، لكنه أطلق ضحكة مجلجلة وكأنه يقرأ أفكارها وقال :

« أنت آمنة معي. فأنا لا أضرب الفتيات، لكنني أيضاً لا أحب أن أضرب منهن ».

« دعني أذهب ».

ثم تذكرت فجأة شيئاً آخر فأضافت قائلة :

« وأنت ايضاً كنت تلاحقني ».

وكأنها تذكرت ما يمكن أن تجره هذه العبارة، فأخذت تحرك ذراعيها بشدة محاولة التملص من قبضته.

أطلق ذراعيها بقسوة وقال :

« صحيح، لكنني كنت أقصد هذه الناحية اساساً. فقد كنت أرغب في اصطياد بعض سمك الترويت قبل الذهاب الى البيت وهكذا ».

ونقل نظره بين الجدول المائي وبين وجه اليسون وكأنه يتحداها. لم

تستطع أن تواجه نظراته، لذلك حولت وجهها الى ناحية أخرى. هذه هي المرة الاولى التي يتواجهان فيها، فالنزاع العائلي كان يقف حاجزاً بينهما. انها تكرهه لأنه من العائلة المعادية، وتكرهه لأنه أسدى اليها معروفاً، وتكرهه لأنه عانقها بالقوة. هذا هو عناقها الأول. لم تكن تتصوره على هذا الشكل وليس مع عدوها العائلي.

قالت بعد تردّد محاولة أن تبدو حازمة وجادة :

« لكن اصطيادك السمك يعتبر اعتداء على أملاك الغير ».

جلجلت ضحكة نيال وهو يقول :

« املاك الغير ؟ حسناً يا آنسة ماكاي، لن تكون هذه هي المرة الاولى التي اعتدي فيها على املاك الغير ولن تكون الاخيرة ايضاً ».

حلت الدهشة محل الخوف في نفس اليسون التي ادركت انه لن يؤذيها.

قالت له باستغراب :

« ماذا تعني بذلك ؟ »

ردّد جملتها ساخراً :

« ماذا تعني بذلك ؟ هل أنت صماء ؟ لقد قصدت هذه الناحية مئات المرات، وكذلك اخوتي. وتأكدي أن البستاني واليك وكلابكم لم يعرفوا أبداً ».

قالت :

« أنا سأخبرهم وسنطالب باعتقالك ».

« آه لقد جعلتني أرتجف من الخوف جربي ذلك، وسوف تتحولين الى اضحوكة القرية فأين الدليل ؟ ».

« سأخبرهم بما أخبرتني به ».

هز رأسه بتهكم :

« هل ستفعلين بعد اليوم، وتتركينهم يسألونني كيف حصلت على هذا الجرح ؟ ماذا تريدينني أن أخبرهم ؟ هل أخبرهم أنك تعاركت معي ؟ أم أخبرهم الحقيقة ؟ ».

اتسعت البسمة على شفتيه في حين ضمت اليسون قبضتيها وهي تشعر بالحقد أكثر فأكثر. يا له من وقح، انه يملك جواباً لكل شيء، وهي تضيّع وقتها في الحديث معه. رفعت رأسها ووقفت في وجهه بصلابة وعناد :

« هيا خذ اسماكك وارحل. لا بدّ أنك بحاجة الى مكافأة على انقاذك لي، سمك الترويت هو المكافأة ».

أدركت اليسون أن كلامها صدمه، وجاءت كلماته لتؤكد ذلك :

« من المؤسف أن أحداً لم يستطع أن ينزلك من عليائك أيتها المتمردة »

أجابته وهي تستدير مواصلة السير :

« من أنت ؟ انك تضحكني فعلاً ».

« ربما أستطيع ذلك في يوم من الأيام ».

ركضت اليسون باتجاه البيت، ولم تخبر احداً بما حدث حتى ولا أليك الذي كان يوصل احدى الفتيات الى بيتها، ولذلك لم يقل لأبويه انه لم يوصل اخته الى المنزل.

عبرت اليسون الآن الجدول الثاني، وقد ملأت الذكريات القديمة رأسها. لا شك أن نيال قال الكلمات القاسية الأخيرة دون أن يعنيها، إذ أنه بعد أيام من حادثة الجدول غادر البيت ولم تعد تراه أبداً.

كان الفرق واضحاً جداً بين الشاب المشاكس الذي شاهدته لآخر مرة عند الجدول وبين الرجل الذي اصطدمت به بعد ظهر هذا اليوم. فلقد تغيّر تماماً، كتفاه اصبحتا اعرض وبنيته اكثر قوة. فالشاب ذو الطباع الحادة أصبح رجلاً ناضجاً، ووجهه الساخر بات يحمل ملامح السنوات وتجارب الأيام.

واصلت اليسون سيرها نحو البيت، وهي تدرك أن جسي ستهتم كثيراً عندما تخبرها عن هوية الرجل الذي التقته اليوم، بعكس أمها التي كانت تضيق ذرعاً باصرار اليك على مقاتلة نيال ولا تفهم لماذا يستمر النزاع في التأثير على حياة العائلتين بعد هذا الزمن الطويل.

لكن عندما دخلت اليسون البيت، طارت من ذهنها كل أحداث اليوم بمجرد رؤية التعبير الذي حمله وجه أمها، التي اسرعت تستقبلها فور سماعها صوت فتح الباب. كان في الجو نوع من القلق، لذلك سألت اليسون على الفور :

« أمي ماذا في الأمر ؟ ».

« انهيت لتوي اتصالاً مع جون ستيوارت الراغب في شراء البيت. وقد ابلغني انه آت لزيارتنا غداً ».

خفق قلب اليسون بشدة لدى سماعها النبأ، ونظرت الى أمها بأسى واضح. كان هناك شيء آخر في نفس أمها، قالت لها :

« حسناً فليات ».

« شيء آخر يا اليسون ».

« نعم ».

« آه... لا شيء ».

لكن يد الأم التي ارتفعت الى خدها عكست طبيعة الاضطراب الذي تعانيه هذه السيدة.

« أمي، ماذا في الأمر ؟ هل أعدت التفكير بقرارك ؟ »

« لا، لا... انني... انني لست على ما يرام ».

ركضت الأم باتجاه غرفتها وكأن احداً يطاردها. وقفت اليسون ترقب المنظر وقد أحست بأن أمها مصابة باضطراب في الاعصاب، لكنها لم تستطع أن تحدّد سبب ذلك.

استيقظت اليسون صباح اليوم التالي وقلبها مثقل بالهموم والأحزان. وطوال الوقت كانت تحس كمحكوم بالاعدام ينتظر لحظة تنفيذ الحكم. لم تستطع أن تنام جيداً أمس وقد انعكس القلق دوائر سوداء وحمراء حول عينيها.

الرجل الراغب بشراء البيت سيأتي الساعة العاشرة. عند الساعة التاسعة والنصف اكتفت اليسون باحتساء فنجان من القهوة لأن نفسها كانت رافضة للاكل. وسرعان ما وجدت نفسها عاجزة عن الانتظار ولذلك قررت الذهاب هي والكلب في نزهة قصيرة.

طفرت الدموع الى عيني اليسون عندما توقفت في الحديقة لتتأمل البيت الضخم الذي يحمل كل الذكريات. لقد ولد ابوها واجدادها هنا، وكذلك هي وأليك. ولم تكن لتحتمل فكرة انتقال البيت الى اناس غرباء، لكن المطلوب معجزة للابقاء عليه.

سارت اليسون ببطء مع الكلب وسط الاشجار والاعشاب البرية دون اتجاه محدد. ولعل ذكريات الأمس قادت خطاها فوجدت نفسها تقصد الجدول المائي. عبرت الكثير من الاشجار الكثيفة المتشابكة قبل أن تصل الى الجدول حيث وقعت تلك الاحداث المؤلمة قبل تسع سنوات. وما ان

أطلت على المكان حتى شهقت بصوت خافت عندما رأت شخصاً يقف عند طرف الجدول. التفت الرجل نحوها. لم يكن شبحاً مرعباً بل هو رجل من لحم ودم اكثر نضجاً من المرة السابقة التي رأته فيها في المكان نفسه. المكان نفسه والشخص نفسه... لكن بعد تسع سنوات. هناك وقف نيال ماكبين يراقبها، وكأنه كان ينتظر مجيئها الى الجدول !

٢ ـ الطريق الى القلب

سارت اليسون ببطء نحو نيال وهي تجر الكلب الى جانبها. أحست برغبة طفولية في طرده من المكان، لكنها تذكرت أنها لم تعد طفلة. ومع ذلك لا شيء يدعوها للترحيب به. لذلك قالت له عندما اقتربت منه ما فيه الكفاية :

« ماذا تفعل هنا ؟ »

« أتجول في هذه الطبيعة وأفكر فقط ».

كان جوابه هادئاً ولا مبالياً تماماً كالتعبير الذي حملته عيناه. كان هذا الرجل، بهدوئه وسكونه، نقيض الشاب ذي الطباع النارية الذي تذكره اليسون. لقد اصبح رجلاً ناضجاً وهو يدرك هذه الحقيقة تماماً. على كل حال انها الآن في مواجهة معتد على اراضيها، لذلك قالت له :

« أما زلت تتمتع بالتسلل الى اراضي الغير ؟ ».

« أنت مخطئة يا آنسة ماكاي ».

تعمّد نيال أن يصمت قليلاً وكأنه يريدها أن تتذكر الماضي بكل تفاصيله، ثم تابع قائلاً بصوت ناعم :

« أنا مدعو الى هذا البيت ».

« مدعو ؟ لا أصدق ابداً... إلاّ ».

توقفت اليسون عندما لمحت الابتسامة العريضة على وجهه :

« أنا مدعو من قبل أمك. ألم تخبرك عن حضوري ؟ »

« لا. لم... انك لست ».

لم تستطع أن تكمل عبارتها، واحتاجت الى نفس عميق كي تضبط

أعصابها. فاذا كان ما يقوله صحيحاً، فهذا يعني أنه الغريب الآتي للاطلاع على البيت بقصد شرائه.

تداركت الوضع وأضافت تقول :

« أتريد أن تقول انك الشخص الراغب في شراء البيت ؟ »

نظر الى ساعته وهو يقول :

« أجل. جئت الى هنا أبكر من الموعد، لذلك قررت أن آتي من هذا الطريق. في كل حال هذا سيوفر عليك مشقة تعريفي الى المنطقة على أساس أنني شاهدتها بنفسي الآن، أليس كذلك ؟ ».

أحست اليسون بنغمة ساخرة في كلماته التي عزفت على وتر حساس في ذاكرتها.

ردّت الهجوم الساخر بأقسى منه قائلة :

« أنا متأكدة أنك تعرف كل شبر فيها ».

مع ذلك كانت الصدمة ما زالت مسيطرة عليها. الآن فقط أدركت سبب توتر أمها الليلة الماضية، فقد عرفت أنها ستثير غضب اليسون اذا ما كشفت هوية الشاري. فيما بعد ستتفاهم مع أمها حول هذه المسألة، أما في هذه اللحظة فعليها أن تتعامل مع الواقع الجديد. في هذه الاثناء كان الكلب يدور حول نيال غير متأكد ما اذا كان صديقاً او غريباً، لكن يداً مداعبة من الرجل جعلت الكلب يهدأ ويجلس عند قدميه. فجأة صرخت اليسون :

« راستي، تعال الى هنا ».

كانت قد بدأت تشعر بالانزعاج من وجوده هنا، لذلك استدارت عائدة الى البيت وهي تتمنى أن يكون الأمر كله مجرد حلم، أو أن يغيّر نيال رأيه ويرحل بعد اهمالها له.

سمعت وقع أقدام خلفها، ثم جاء صوته :

« قاربت الساعة العاشرة، وسوف أتوجه الى البيت الآن ».

انتفض شيء في صدر اليسون، فالتفتت لتجده خلفها تماماً. قالت :

« انتهت اللعبة. بعد هذه المزحة السخيفة عليك أن ترحل. انني أفضل الموت على أن يذهب البيت اليك ».

تقلصت عضلات وجهه فجأة، لكن صوته كان هادئاً وناعماً :

« أمك هي التي ستقرر الأمر، وليس أنت ».

حدّقت اليسون مباشرة في عينيه وردّت بتحدّ :

« أمي تريد بيع البيت، ولكنها لن تقدمه لأحد مقابل ماله، اذا كنت تفهم ما أقصده ».

انتشح وجه نيال بالغضب الشديد، لكن اليسون لم تكن تهتم لشيء :

« لذلك لا تعتقد أنك تستطيع اضاعة وقتنا. فأنت تريد فقط الشماتة بوضعنا المتدهور ».

« لمعلوماتك فقط، أنا أملك المال اللازم لشراء البيت ولاجراء الاصلاحات الضرورية فيه، فلقد سمعت انكم تركتم البيت في حالة يرثى لها خلال السنوات القليلة الماضية. وكان من الافضل ان تستعملي حبك للبيت للحفاظ عليه من التداعي ».

شعرت اليسون وكأن خنجراً حاداً يضرب صدرها مع كل كلمة أطلقها. كانت عاجزة عن الردّ خاصة أنها تدرك في أعماقها أنه يقول الحقيقة المجردة. كان عليها أن تدرك ذلك منذ البداية، فالثروة زادت من تباعد شخصية هذا الرجل عن شخصية الشاب المراهق الذي عرفته قبل سنوات. صحيح ان طباعه ما زالت حادة، لكنه مسيطر على نفسه بشكل أثار الخوف في نفسها. وبسبب هذه العوامل كلها، فانه خصم عنيد وخطير عليها أن تواجهه بحذر. ولن تؤذي إلاّ نفسها إذا ما فقدت أعصابها أمامه.

تنفّست بعمق وهي تجاهد للحفاظ على أعصابها :

« إنه في حالة رثة، فلماذا أنت مهتم بشرائه ؟ ».

« كنت مهتماً به طوال حياتي. لقد صممت على هذا قبل مغادرة القرية وقلت عندما أصبح ثرياً بما يكفي، ويصبح البيت للبيع... سأبتاعه ».

رفعت اليسون وجهها متحدية :

« لنفترض أن أمي رفضت البيع ؟ »

نظر اليها بتعجب وقال :

« ولماذا ترفض ؟ انكم لا تستطيعون تحمل الوضع أكثر من ذلك. والمال الذي أقدمه أنا مناسب. انها ستقبل البيع ».

« ربما لكن ليس لك ».

ردّ بقسوة واضحة :

« ليس هناك احد سواي يرغب في الشراء. لا احد... والمتسولون لا يمكن ان يختاروا ويحدّدوا ».

انتفضت اليسون بشدة :

« كيف تجرؤ على هذا الكلام ؟ ».

« لم ابدأ بعد. وسأضطر الى استعمال كلام اكثر قسوة، لأواجه فظاظتك التي لا تحتمل ».

من الواضح انه غاضب جداً، بالاضافة الى شيء آخر كانت اليسون تحسه. يبدو عليه أنه يتمتع بتقريعها. لذلك قررت الانصراف فوراً دون أن تعطيه الفرصة لزيادة الأوضاع سوءاً.

استدارت دون أن تنبس ببنت شفة وبدأت السير نحو البيت. ولما لم تسمع حركة خلفها داهمتها رغبة لا تقاوم بالالتفات الى الخلف. فرأته واقفاً بهدوء... يراقبها وهي تبتعد عنه.

تساءلت اليسون وهي تراقب العجوز المنهمكة في اعداد الغداء :

« ماذا يمكننا أن نفعل يا جسي ؟ ».

أجابت جسي باستسلام :

« وماذا نستطيع أن نفعل يا صغيرتي. فأمك لا تملك اي خيار، على كل، كان يجب أن تكوني معها في الصالة الآن ».

هزّت اليسون رأسها رافضة وقالت :

« صدقيني لا أستطيع. لا أريد حتى ان أكلمه، فكيف بمجالسته واحتساء القهوة معه وكأننا صديقان قديمان ؟ »

قالت جسي بابتسامة عريضة :

« كنت متأكدة أنك ورثت بعض صفات عائلة ماكاي. لكن الحقيقة أن نيال أصبح رجلاً ناضجاً ووسيماً وانيق المظهر، تماماً كما كان ابوه في شبابه ».

كادت اليسون أن تسكب القهوة على ثيابها عندما سمعت هذه الكلمات. وتساءلت باستنكار :

« تقولين وسيم ؟ إنه أشبه بقرصان قذر. كانوا يلقبونه بنيال الاسود والواقع أن الاسم ينطبق عليه الآن اكثر من أي وقت مضى ».

« ربما كنت على حق في اعتقادك هذا. لكنك لا تستطيعين انكار أنه اصبح رجلاً قوي البنية والشخصية. ولا شك أنه حطّم العديد من القلوب خلال رحلاته الطويلة حول العالم ».

عدّلت اليسون من جلستها وكأنها تذكرت شيئاً مهماً :

« جسي، كيف تفسرين حصوله على المال الكافي لشراء البيت ؟ لقد امضى السنوات الماضية في البحرية التجارية، أليس كذلك ؟ ».

« أعرف أنه عمل في البحرية، مسألة حصوله على المال تبقى سراً بالنسبة الي ايضاً. والغريب أنني لم أسمع في القرية شيئاً عن هذه المسألة. في كل حال، المعروف عن الرجل العجوز أنه لا يتحدث ابداً عن ابنائه ».

قطع قرع الجرس في الزاوية حديثهما، فالتفتا الى بعضهما. قالت جسي بهدوء :

« الجرس لك ايتها الكسولة. قالت أمك انها ستقرعه عندما تريدك الى جانبها ».

نهضت اليسون من مقعدها وقد عاد اليها خوفها وتوترها. ومع أنها كانت في بيتها الذي عاشت فيه طيلة حياتها، إلاّ أنها كانت ترتجف لمجرد التفكير بأنها ستدخل الى الصالة لمقابلة الرجل الذي تكرهه. وأكثر ما ضايقها ذلك الشعور بالعجز عن فعل اي شيء لمواجهته.

سارت عبر القاعة الواسعة وفتحت باب الصالة. كانت أمها تجلس في مقعدها قرب المدفأة مرتدية تنورة بسيطة بنية اللون، وسترة صوفية خفيفة من اللون نفسه. وللحظة شعرت اليسون بالشفقة تجاه هذه المرأة التي اضطرت لملاطفة عدوهم البغيض بسبب وضعهم المالي الرديء. ثم نظرت باتجاه الرجل الواقف قرب النافذة، وفي اللحظة ذاتها التفت الرجل فالتقت نظراتهما حاملة مشاعر العداء الصامت والمتبادل.

بدأت الأم حديثها وقد مدت يدها الى اليسون التي أحستها باردة ومرتجفة :

« عزيزتي اليسون، أريدك أن تأخذي السيد ماكين في جولة لرؤية البيت والأراضي الملحقة به ».

حاولت اليسون التدخل فقالت :

« لكن يا أمي. . . »

الاّ أن ضغط الأم حمل رسالة واضحة لأليسون. قالت السيدة ماكاي مخاطبة نيال :

« هل أنت مستعد الآن ؟ »

هزّ نيال رأسه محادثاً الأم ومتجاهلاً الابنة كلياً :

« اذا كان ذلك مناسباً لك يا سيدة ماكاي ».

« بالطبع ».

حاولت الأم أن تتكلف ابتسامة إلاّ أنها عجزت. وقد أدركت اليسون أن أمها تعاني ضغطاً نفسياً كبيراً، وتساءلت عما اذا كان نيال قد ازعجها ببعض الكلمات النابية.

سألت أمها بصوت خافت :

« هل أنت على ما يرام يا أمي ؟ »

« لا شيء يا عزيزتي، أريد فقط بعض الوقت للتفكير ».

تساءلت اليسون في سرها ـ بماذا تريد أن تفكر ؟ وقبل أن تفقد المبادرة مجدداً، استدارت نحو الرجل وقالت له :

« هل يمكن أن تنتظرني في القاعة ؟ سأكون معك بعد لحظات ».

خرج نيال بهدوء وثبات من دون ادنى تردّد. وما ان اغلق الباب خلفه حتى ركعت اليسون الى جانب أمها وقالت بلهفة :

« هيا اخبريني. هل كان فظاً معك ؟ هل حاول أن يجبزك على خفض السعر ؟ »

هزت الأم رأسها وعلامات التعب والارهاق بادية على محياها :

« كلا يا اليسون، ليس كما تتصورين. لم ينطق بأية كلمة في غير مكانها. فقط أريد اعادة التفكير في بعض الأمور. وأعدك بأنني سأحدثك بالأمر لاحقاً. وأرجوك يا ابنتي، من أجلي أنا على الأقل، أن تحاولي عدم اظهار كرهك له بشكل فاضح ».

ردّت اليسون بمرارة شديدة :

« هل تتوقعين مني أن آخذه في الجولة وأنا أمسك يده بيدي ؟ »

أجابتها الأم بابتسامة كبيرة :

« لا اعتقد أنه يتوقع ذلك. لكن حاولي الاعتدال، فهو ليس سيئاً الى الحد الذي تتصورينه ».

ابتلعت اليسون كلمات قاسية كانت ستقولها بحقه، واكتفت بالقول :

« حسناً، سأحاول جاهدة. هل تعتقدين أنه سيشتري ؟ ».

هزّت الأم رأسها بأسى :

« أعتقد أنه سيشتري. أنا آسفة، لكن هذه هي الحقيقة. وأكون مغفلة جداً إذا رفضت عرضه ».

نهضت اليسون وتوجهت الى الباب وقدماها لا تكادان تحملانها.

ما كانت تظن أن البيت متداع الى هذا الحد إلاّ عندما رأته من خلال عيني رجل غريب. فقد راقبته وهو يدقق في النوافذ والجدران والسقوف والارضيات في غرف النوم السبع التي أخذته اليها. أحست بالخجل العميق لحالة البيت المتردية خاصة أن الذي يراها هو عدوها اللدود.

أخرج نيال من جيب سترته دفتراً صغيراً وراح يسجل عليه بعض الملاحظات وهما يواصلان جولتهما. لم تكن اليسون في مزاج يدفعها للحديث المسهب، بل اكتفت بتعليقات مقتضبة حول بعض الأمور الضرورية. وكانت الأسرة والاغطية الحريرية في الغرف غير المستعملة خير شاهد على مجد زائل تمتعت به هذه العائلة قبل سنوات.

تمهّلت اليسون عند أسفل السلم المؤدي الى العلية وقالت :

« هل تريد رؤية الغرف الصغيرة في العلية ؟ »

« اذا لم يكن عندك مانع ».

كان هناك شيء غير عادي في تصرفاته. انتظرها حتى تفتح الطريق أمامه... وعندها ادركت اليسون أنه ربح المعركة لا محالة.

في هذه الغرفة الصغيرة الرطبة، تراكمت كل الاغراض القديمة التي استغنت عنها العائلة مثل الكتب والمجلات واللوحات الباهتة والعاب الاطفال وغيرها. فكرت اليسون أن كل شيء هنا يجب ان يرمى لأن الكوخ لن يستوعب كل هذه النثريات. عبر نيال وسط هذه الفوضى العارمة والقى نظرة من خلال النافذة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

« أعتقد أن هذا يكفي ».

ثم استدار نحوها قائلاً :

« كم غرفة في العلية، غير هذه ؟ »

اجابت :

« أربع غرف، كلها مثل هذه ».

سجل بعض الملاحظات في دفتره، وقال :

« حسناً. سأراها في وقت آخر. يمكننا أن ننزل الى الطابق الأرضي الآن ».

عاد الى حيث كانت اليسون ثم سارا معاً.

استغربت اليسون عبارته الأخيرة خاصة أنها لاحظت تعابير الارتياح على وجهه وهو يتفحص العلية وكأنه عثر على شيء يريده. لكن ما هو هذا الشيء ؟ لا أحد يحتاج العلية إلاّ اذا كان يملك عائلة كبيرة. لكنه رجل غامض على أي حال. أخذته الى كل الغرف في الطابق الأرضي باستثناء الغرفة التي كانت تجلس فيها أمها مع الكلب. وعندما ادخلته الى الغرفة الزجاجية الخاصة بالنباتات قال باعجاب واضح :

« هذا شيء جميل. من الذي يهتم بكل هذه النباتات ؟ »

ردّت اليسون باقتضاب :

« أنا. والآن سأريك غرفة الرسم. من هنا الطريق ».

عبرا ممراً واسعاً يجاور الغرفة الزجاجية ويصل مباشرة الى الغرفة المفضلة عند اليسون، والتي تستعملها والدتها للرسم. كانت الغرفة قد أضيفت الى البيت قبل سنوات وهي مبنية من الحجر الناعم الصلب وفيها نوافذ عديدة بحيث يطغى عليها النور طيلة اليوم. وفي كل مكان، كانت اللوحات ترتاح على الجدران والمقاعد والكراسي والطاولة، ومن بينها لوحة للوادي لم تجف الوانها بعد. وقف نيال أمام هذه اللوحة يتأملها، فأحست اليسون برغبة في طرده من المكان... لكنها وقفت في مكانها بصمت في حين كانت يدها تضغط بغيظ مكتوم على مقبض الباب. وسرعان ما شعرت بالتعب والارهاق الاضطراري الى كبت كل الرغبات العدائية ضده. بعد دقائق التفت اليها قائلاً :

« والآن، هل يمكننا رؤية الحدائق ؟»

أجابته بقسوة هادئة :

« لقد شاهدتها من قبل، اليس كذلك ؟ ».

قال وملامح بسمة ساخرة تعلو شفتيه :

« لم اشاهدها كما يجب لأن زياراتي لها كانت ليلاً. أريد أن أراها في ضوء

النهار، بما في ذلك الكراج والكنيسة ».

رمقته اليسون بنظرة حادة وقالت :

« لكنها لم تستعمل منذ زمن طويل ».

« ومع ذلك أريد أن أراها إذا أمكن ».

وكانت العبارة الأخيرة دليلاً على أنه مصمم على تنفيذ كلامه. ابتلعت اليسون ريقها بضيق بينما فتح لها الباب لتتقدم الطريق.

انتهى الكابوس بعد نصف ساعة عندما عادا معاً الى البيت. كانت اليسون متوترة ومتعبة بحيث تعثرت على السلم الحجري المؤدي الى باب البيت. وبسرعة مد يده يسندها، فأحست بلمسته تحرق ذراعها. استعادت توازنها على الفور وابتعدت عنه قائلة :

« شكراً لك ».

أحمر خداها عندما شاهدت نظرة التهام في عينيه أحست بأنه يكرهها بقدر ما تكرهه هي. وتساءلت في سرها عما اذا كان يتذكر الحادث الذي وقع بعد حفلة الرقص قبل تسع سنوات... واذا بها تتذكر عبارته الاخيرة التي اطلقها في ساعة الغضب :

« انك بحاجة لمن ينزلك من عليائك ».

هل تكون هذه هي طريقته في الانتقام منها ؟ رمقته اليسون بسرعة وهي تفتح الباب الامامي، فالتقت عيناه عينيها في لمحة عابرة كانت تكفي لبث الرجفة في اوصالها. أخذت نفساً عميقاً وقد أحست بالخوف المفاجئ منه، إذا كان ينوي الانتقام فعلا، فانه يفعل ذلك بطريقة مرعبة للغاية ستستمر طيلة حياتها. فهي تدرك أنها لن تنسى أبداً الشخص الذي حرمها من بيت ابيها وأجدادها.

اعتقدت اليسون أن الاسوأ قد انتهى بعد انتهاء الجولة التفقدية، لكن الاسوأ فعلاً حدث عندما عادا معاً الى حيث تنتظر الأم. رفعت السيدة ماكاي ناظريها الى نيال متجاهلة ابنتها وسألته :

« هل قلت لها شيئاً ؟ ».

هز رأسه بالنفي واجاب :

« لا من الأفضل ان تقومي أنت بالمهمة يا سيدة ماكاي ».

سألت اليسون وقلبها يخفق بشدة :

« ماذا في الأمر ؟ هيا أخبراني ».

اقترب نيال حتى أصبح بمواجهة السيدة ماكاي وقال :

« العرض قائم يا سيدة ماكاي. قولي كلمة الموافقة وسنذهب الى المحامي صباح يوم الاثنين ».

« أمي أرجوك، قبل أن تقولي أي شيء آخر أخبريني عما كان يجب أن يبلغني اياه ».

كانت اليسون متقطعة الانفاس وكأنها وصلت لتوها من سباق سريع. فهي تدرك أن اللحظات القليلة المقبلة ستحمل قراراً حاسماً لا رجعة عنه في ما يتعلق بالبيت.

نظرت الأم الى ابنتها بحزن معبر وقالت :

« السيد ماكين يريد ان يحول البيت الى فندق ».

« يا امي... لا ».

أغمضت اليسون عينيها، وتذكرت على الفور الملاحظات العديدة التي دونها في مفكرته خلال الجولة... الآن عرفت لماذا. بيتها الذي عاشت فيه طيلة حياتها سيتحول الى فندق يؤمه الغرباء من كل حدب وصوب، يتجولون فيه، يتنزهون في حدائقه ويصطادون السمك في الجدول الخاص بالعائلة...

« لا يمكنك أن تفعلي ذلك... لا تتركيه يستولي على البيت ».

نظرت اليسون اليه بغضب، وتمنت للمرة الاولى في حياتها أن تكون رجلاً، لأنها أرادت أن تحطم عنفوانه وتعاقبه بالطريقة الوحيدة التي يفهمها... القوة.

أضافت وهي ترتجف :

« لا تبيعيه يا أمي... سوف نجد شارياً آخر ».

استدار نيال نحوها وعلى وجهه عبارات الاشفاق التي سرعان ما أختفت لتحل مكانها ملامح مبهمة لا معنى لها :

« ربما من الأفضل أن أخرج قليلا إذا ما كنتما تريدان مناقشة الموضوع ».

قالت الأم :

« لا ضرورة لذلك. وأنت يا اليسون الزمي الهدوء ارجوك ».

جلست اليسون بالقرب من أمها وجاهدت كي تحبس دمعات تجمعت في عينيها بغزارة. لا يمكنها ان تفعل شيئاً الآن، فالأم قد أخذت قرارها وانتهى الأمر. قبعت اليسون منعزلة تراقبها. قالت الأم :

« ارجوك أن تجلس يا سيد ماكبين، فهناك بعض الأمور التي يجب أن نناقشها ».

جلس في المقعد المقابل لمقعديهما، وسرعان ما جاء الكلب وربض عند قدميه. مد نيال يده لمداعبة الحيوان الساكن وقال :

« الكوخ الذي تريدون الاحتفاظ به، هل هو ذلك الذي يقع قرب الوادي ؟ ».

« نعم، انه مكان منفصل. وأعتقد أننا نستطيع انشاء ممر يؤدي اليه من الطريق العام ».

« كما تريدين فالأمر غير مهم بالنسبة إليّ، كما يمكنكم استعمال الأراضي والحدائق اذا اردتم ». تردد قليلاً قبل أن يضيف :

« أما بالنسبة لغرفة الرسم فأنا لا أريد ان آخذها منك. فاذا رغبت في الاستمرار باستعمالها. . . فهي لك ».

سمعت اليسون شهقة الدهشة وعدم التصديق التي اطلقتها أمها قائلة :

« ماذا ؟ هذا لطف منك. هل أنت متأكد ؟ ».

« كل التأكيد. نستطيع أن نفتح باباً مستقلاً للغرفة بعد أن نغلق الباب الذي يربطها بالبيت، بحيث لا يصل اليها الزبائن. . . وبالطبع سيكون المفتاح معك ».

« شكراً لك. فالكوخ لن يتسع لكل اللوحات وأدوات الرسم. . . وكنت افكر فيما يمكن أن أفعل بها ».

قالت اليسون لنفسها بمرارة: انها تتصرف وكأنه اسدى اليها معروفاً كبيراً.

« وماذا عن الجزيرة يا سيدة ماكاي، متى أستطيع ان أراها ؟ »

صرخت اليسون :

« امي لا أظنك ستبيعين الجزيرة ايضاً ».

نظرت اليها أمها بتثاقل :

« طبعاً. فالجزيرة ملحقة بالبيت كما تعرفين. وبالاضافة الى ذلك، لا

أعتقد أننا بحاجة اليها ».

« أنا اذهب اليها كثيراً، وأنت ترسمين هناك. . . »

« أنا متأكدة من أن السيد ماكبين لن يمانع في ذهابنا الى الجزيرة بعد بيعها ».

ثم التفتت الى نيال وتابعت تقول :

« المناظر من هنا رائعة جداً، وهي تشحذ خيال الرسام ».

ابتسم بهدوء وقال :

« لا شك في ذلك. ربما أقوم باصلاح الكوخ في الجزيرة، ثم اؤجرها كمكان لقضاء شهر العسل ».

« يا لها من فكرة رومنطيقية ».

ضمت السيدة ماكاي يديها الى صدرها بفرح طفولي، في حين رمتها اليسون بنظرة حانقة باردة. أما هو فقد نظر اليها بسخرية واضحة. لم يعد يهمها شيء، فلن يحدث بعد الآن اسوأ مما حدث لغاية اللحظة.

قالت الأم بعد قليل :

« ستأخذك اليسون الى الجزيرة بعد الظهر ».

ردّت اليسون على الفور واضعة كل فظاظتها في كلماتها :

« أظنك تعرف طريقك الى هناك تماماً يا سيد ماكبين ؟ وأظن أنك ستدبر أمورك بشكل أفضل اذا ما كنت لوحدك ».

أجابها بهدوء قائل :

« أفضل ان تأخذيني بنفسك. فالقارب هو قاربك وأنا أخشى أن اسيء استعماله ».

نقلت الأم نظرها بين الاثنين وقد أحست الجو المشحون بينهما، فازداد تمزقها بين اتخاذ القرار والتراجع عنه.

فجأة، نهضت اليسون واقفة :

« سآخذك بعد الظهر. أما الآن فاعتذر منكما لأن هناك اشغالاً عديدة تنتظرني ».

أنهت عبارتها الاخيرة ثم غادرت الغرفة فوراً، قاصدة المطبخ لافراغ كل شحناتها وانفعالاتها أمام جسي. . . التي ستفهم مشاعرها، خاصة بالنسبة الى الجزيرة، بعكس امها التي بدت وكأنها تميل للعدو اكثر من ميلها الى

ابنتها.

في ظرف غير هذا، كانت رحلة القارب في الجدول الساكن ستكون متعة حقيقية في ذلك النهار الدافىء... لكنها ليست كذلك مع هذا الرجل. ركزت اليسون نظرها على المجذافين، محاولة تناسي عدوها الجالس قبالتها.

كان قد عاد بعد الظهر في ثياب غير تلك التي شاهدته بها صباحاً. ولو لم تكن اليسون تحمل له كل الكراهية والاشمئزاز لوافقت جسي على قولها بأنه ذو مظهر انيق وجذاب. فقد كان طويل القامة عريض المنكبين وقوي البنية دون امتلاء. فكرت بأن العمل في البحر اعطاه هذا القوام الممشوق، لكن من أين حصل على ثروته ؟

لم يكلما بعضهما منذ ان غادرا البيت، إذ لا شيء بينهما يقال. حدّقت اليسون في المدرسة التي بدت من البعيد وكأنها لعبة اطفال. كم كانت مرتاحة البال قبل يومين ؟ كان يوماً مشوّماً عندما جاءت السيارة الزرقاء الى القرية، فقد حملت معها كل المتاعب والمشاكل.

أصبحا قريبين الآن، وباتت الجزيرة في متناول النظر. لم تكن الجزيرة كبيرة، مجرد ربع ميل مربع تقريباً. لكنها من الكبر بحيث تضم بعض الكهوف والعديد من الاشجار والزهور البرية، وكوخاً حالماً وسط حدائق جميلة.

وصل القارب الى شاطىء الجزيرة وتوقف في الخليج الصغير المخصص للرسو. قفز نيال برشاقة الى الشاطىء ثم سحب القارب وربطه في وتد خشبي متين. وقبل ان يمد يده لمساعدة اليسون، كانت هي قد قفزت الى البر متجاهلة يده. تلفت نيال حوله ثم قال باعجاب ملحوظ :

« رائعة... الا تعتقدين ذلك ؟ ».

ردت باختصار جاف :

« أجل. أين تريد أن تبدأ ؟ »

نظر اليها بعمق وقال :

« من الكوخ على ما أعتقد ».

« كما تريد... ».

سألها بنعومة :

« هل تستطيعين التسلق، أم أنك بحاجة الى مساعدة ؟ »

نظرت اليه باستغراب دون أن تحاول اخفاء امتعاضها :

« منك أنت ؟ لا شكراً... أستطيع تدبر أمري من دونك ».

خيّم الصمت للحظات، ثم قطعه نيال بصوت حاد مباشر :

« دعيني أوضح لك الأمور. اذا كنت تعتقدين أنك بتصرفاتك الطفولية السخيفة قد تجبرينني على التخلي عن شراء البيت، فأنت مخطئة. تصرفاتك ستزيد من تصميمي على الحصول عليه ».

واجهته بتحد قائلة :

« هل تريده فعلاً ؟ أم أنك صممت على ذلك منذ سنوات بعيدة ؟ لقد اخترت طريقة قاسية للانتقام مني... لا تعتقد اني نسيت... ابداً ».

نظر اليها مدهوشاً وقال :

« الانتقام ؟ ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ »

« لا تتظاهر بالبراءة... ان ذاكرتي قوية ».

حدّق فيها بامعان قائلاً :

« يبدو ان ذاكرتك اقوى من ذاكرتي... ومن الأفضل أن تخبريني الآن ».

روت اليسون كل تفاصيل الحادث الذي وقع قبل تسع سنوات بالقرب من الجدول... وعندما انتهت هز نيال رأسه قائلاً وابتسامة خفيفة تلوح على شفتيه :

« اذن هذه هي المسألة ؟ هل تعتقدين أن كلاماً سخيفاً قلته في لحظة غضب يمكن ان يدفعني الى تغيير حياتي، فقط كي أنتقم من فتاة ما ؟ يا الهي، انك اكثر غباء مما تصورت ».

وللحظات أحست اليسون بالصدق في كلماته. لكنها استدارت فوراً وبدأت تتسلق التلة التي يقوم عليها الكوخ في محاولة يائسة للهرب منه ومن أجوبته الجاهزة ابداً. ما زال نيال الشخص العنيد الواثق من نفسه، والشيء الوحيد الذي تغيّر هو مظهره الخارجي. اذ لم يعد ذلك الفتى المهتز الشخصية بل صار رجلاً يستطيع تحقيق كل ما يريد. وها هو قد كسب حتى الآن أمها... والكلب راستي.

تساءلت في سرها: دور من بعد ذلك ؟ بالتأكيد ليست جسي ؟ قلّبت

اليسون التساؤلات في ذهنها وهي تواصل سيرها نحو الكوخ. لن يكون الأمر محتملاً اذا ما كسب نيال جسي ووجدت نفسها وحيدة في مواجهته. صحيح ان ميغ هي صديقتها الحميمة وتعيش في مكان قريب، لكنها لن تفهم مشاعرها وظروف العداء التاريخي تجاه عائلة ماكين... وحده شقيقها اليك يقدر الوضع، لكنه بعيد جداً... جداً، وهو عاجز عن فعل اي شيء حتى لو اخبرته أن البيت سيذهب الى الاعداء... وانه سيتحول الى فندق.

وقبل أن تصل الى قمة الدرج الصخري الضيق، زلت قدمها قليلاً مما ادى الى انهيار بعض الصخور الصغيرة... لم تستطع ان تحذر نيال الذي كان يتبعها، وعندما التفتت اليه كانت الصخور قد أصابت يده وأخذ الدم ينزف بغزارة.

حاولت ان تساعده على صعود المسافة القصيرة المتبقية، لكنه تجاهل يدها الممدودة نحوه وأخرج منديلاً من جيب سترته وضمّد به يده المجروحة. فقالت له:

« أنا آسفة... إنه حادث عارض ».

« هل هو حادث فعلاً؟ »

وجه اليها نظرة صارمة، ثم سار باتجاه الكوخ الذي أصبح مرئياً وسط الاشجار الكثيفة. اسرعت اليسون كي تلحق به وشعور عارم يجتاحها، هو مزيج من الأسف لأن الحادث غير مقصود فعلاً، والغضب للهجة المشككة التي واجهها بها.

لحقت به بعد لحظات قائلة:

« لقد كان حادثاً. لم أكن أتوقع أن... »

قاطعها قائلا:

« دعك من الموضوع. لقد جئت هذه المنطقة مرات عديدة بحيث صرت تعرفين خطورة الصخور المتساقطة، وأيضاً كيفية تجنبها. ومع ذلك أسرعت مثل طفلة صغيرة غير عابئة بالخطر المحتمل. »

لم تستطع أن تضبط نفسها اكثر، فردت عليه بقوة:

« إذا كنت ذكياً كما تدعي، فلماذا لم تنتظرني حتى أصل ثم تصعد خلفي؟ »

« لأن طريقتك في الصعود كانت تشير الى أنك ستسقطين حتماً... ومن الأفضل أن اتلقاك في منتصف الطريق على أن لا أتلقاك ابداً ».

التمعت عيناها بشرارات الغضب. وهي تقول:

« كنت اعتقد انك ستسر اذا ما سقطت فعلاً. »

ردّ عليها بصوت ناعم بارد:

« هدفي ان اشتري البيت وليس أن اقتلك ».

أحست اليسون في نبرة صوته شيئاً ما يحذرها من أن صبر هذا الرجل قد بدأ ينفد. سحبت نفساً عميقاً من دون أن تبعد عينيها عن وجهه الذي بدا جذاباً بالفعل بمسحة الشحوب التي لم تدر ان كانت بفعل الألم أم بفعل الغضب.

سألته بهدوء:

« هل تريد أن نعود الى البيت على أن نرى الكوخ غداً؟ »

نظر الى يده المجروحة مبتسماً وقال:

« لماذا؟ لقد أصبت في حياتي باسوأ من ذلك... أعتقد أنني سأعيش ».

تركها واقفة وواصل سيره باتجاه الكوخ. عندما لحقت به بعد لحظات، رأته يمعن النظر في تفاصيل المكان وكأنه يتصوره بعد ادخال التعديلات اللازمة عليه. مرة اخرى تركها في الخارج، ودخل يتفحص غرف الكوخ.

بدأت اليسون تشعر انها تخوض معركة خاسرة ضد رجل لا يأبه لشيء. وفكرت عندما عبر احدى النوافذ لماذا لا تترك الامور على سجيتها؟ خاصة أن عملية البيع تبدو واقعة لا محالة. ستكون أمها غبية اذا رفضت العرض، فهم بحاجة ماسة الى المال... واقامة فندق في البيت أفضل من رؤيته يتداعى تدريجياً كما هي الحال الآن. لعلها الفرصة المناسبة هذه المرة، وربما يغادر المكان بعد ان يحوله الى فندق ويسلمه الى اداريين مختصين. انه بحار، والبحارة قلما يستقرون في مكان واحد...

ايقظها صوته من افكارها المتناثرة:

« سأقوم بجولة في الجزيرة، هل أنت قادمة؟ »

هزت رأسها باذعان. انه يصر على وجودها. ولم لا؟ فما دامت هي هنا فلماذا لا تتأمل ايضاً ما سوف يخسرونه. عبرا سوياً اشجار الصنوبر والسرو

الكثيفة باتجاه الطرف الآخر من الجزيرة. النزول من الجهة الجنوبية أسهل، لكنها منذ الصباح غير قادرة على التفكير المنطقي. راقبته اليسون وهو يقود الطريق أمامها دون أن يلتفت الى الخلف أو يعرض عليها المساعدة. كان ظهره منتصباً، بدا رجلاً قوياً. ولم تملك اليسون إلا أن تقارنه بالصبي الأرعن الذي قابلته قبل سنوات. صحيح انها تكرهه، لكنها لا تستطيع أن تنكر انه خلف هذه الكراهية تكمن بعض ملامح الاعجاب بروحه الحرة المغامرة وفي خضم افكارها، أكدت اليسون لنفسها أن الفندق الذي سيفتتحه نيال سيكون ناجحاً، فهذا الرجل لا يقبل انصاف الحلول أبداً.

وصل الى الشاطىء الصخري والتفت اليها قائلاً :

« من هنا »

تابع السير بالاتجاه الغربي واليسون تتبعه دون ادنى اعتراض. كانت المناظر من هذه الناحية أجمل على الاطلاق. وعندما توقفت قليلاً للتمتع بالمناظر الخلابة استدار نيال ناحيتها بنفاد صبر... فاضطرت الى الاسراع خلفه. بدأت تحس بالتعب الممزوج بالحزن العميق. هذا الرجل يريد الجزيرة والبيت. أحست وكأنه يحاول أن ينتزع منها كل شيء... وتصورت أن الامان الذي أحست به طوال حياتها تبعثر ككومة من الرمال عصفت بها الامواج والرياح. وخلال أيام لن يبقى لهم إلا الكوخ الذي كان في الماضي مسكناً للبستاني وعائلته... وطبعاً غرفة الرسم... ترى ما الذي دفعه الى تقديم هذا العرض الحاتمي؟

وعند الصخور الشاهقة في الجانب الغربي، وقف نيال مسرحاً نظره نحو الشواطىء القريبة. ولم تستطع اليسون إلا أن تسأل :

« لماذا قررت أن تترك غرفة الرسم لأمي؟ »

استدار ببطء شديد، ونظر اليها باستغراب وتهكم :

« ألا تحاولين أن تكوني مهذبة في تحقيقاتك؟ »

أحست اليسون بحمرة الخجل تضرج خديها، لكنها تمالكت نفسها قائلة :

« لا أظنك تحتمل التهذيب... ذلك انني لم الحظ وجود هذه الصفة فيك حتى الآن ».

« هذا صحيح »

اكتفى بهذه العبارة، ثم استدار معاوداً تأمل الشواطىء البعيدة. ودون أن يلتفت اليها تساءل بعد لحظات :

« وهل من الضروري أن يكون عندي سبب لذلك؟ »

اجابته بنبرة عادية :

« أعتقد أن هناك سبباً، لكنني أجهل كنهه ».

« حسناً، الأمر بسيط للغاية. كانت أمك في الماضي مهندسة ديكور، وأنا أريدها أن تساعدني في ديكورات الفندق ».

اطلقت اليسون ضحكة عالية قائلة :

« بربك، هل تعتقد بأنها سوف تفعل؟ لا شك أنك مجنون حين تفكر هكذا ».

أجابها بنعومة :

« لماذا تعتقدين ذلك؟ »

« لأنها تشعر مثلي. فهي لن تتعامل معك على الاطلاق بعد اتمام عملية البيع. اتظن انك رشوتها بغرفة الرسم؟ عندما اخبرها بالحقيقة فسوف ترميها في وجهك ».

ابتسم بسخرية :

« على العكس تماماً. أنت مخطئة في توقعاتك. لقد سألتها ووافقت حتى قبل أن أعرض عليها غرفة الرسم... أمك يا آنسة ماكاي سوف تكون موظفة عندي ».

٣ ـ هل أنت متزوج؟

ولأول مرة منذ سنوات تمضي اليسون ليلة في البكاء والنحيب. فقد كان النوم كابوساً مزعجاً.

ان نيال الأسود، رغم كل محاولاته للانكار، كان يسجّل انتقاماً رهيباً ضدّ أعداء عائلته القدامى، في حين تجد اليسون نفسها تتخبّط في شبكة عنكبوت جهنمية تزداد تعقيداً كلما حاولت التملص منها.

فبعد الكلمات القاسية التي رماها بها نيال، تركته وحيداً وعادت الى القارب لانتظاره هناك. فهي لم تعد راغبة بالتحدث اليه، أو حتى النظر في وجهه.

وما ان وصلا الى البيت حتى أسرعت الى غرفتها تاركة له مهمة ربط القارب في مرساه. لم تقابل أمها، لأنها خشيت أن تقول لها كلمات قاسية قد تندم عليها فيما بعد. بل صعدت الى غرفتها مدعية بأنها مصابة بصداع حاد وتريد بعض الراحة... ولقد شاهدت في وجه جسي عندما التقتها قرب المطبخ من العطف ما كاد أن يفجّر في نفسها مشاعر الحزن والمرارة، لكنها تمالكت وهربت الى غرفتها.

في اليوم التالي، وكان يوم الأحد، أفاقت اليسون باكراً وأعدت نفسها لرحلة طويلة. فهي تريد خلوة تستطيع فيها أن تفكر بهدوء... ولكنها عندما عادت مساء، كانت منهكة القوى دون أن تصل الى حل ما لمشكلتها العويصة. وقد أخبرتها جسي قبل اخلادها الى النوم أن أمها أمضت اليوم كله تعمل في غرفة الرسم.

تناولت اليسون افطارها الصباحي وحيدة. فعلى ما يبدو، جاء دور أمها

للاصابة بالصداع الحاد. لم تسأل اليسون عن الوقت الذي أمضاه نيال في البيت مساء السبت، وعما إذا كان قد طرح مشروعات جديدة. فهي لا تريد أن تعرف شيئاً يتعلق به.

وجدت صعوبة بالغة في عدم الالتفات الى منزل عائلة ماكين عندما عبرت في طريقها الى المدرسة. احست وكأن مغنطيساً هائلاً يجذب نظرها الى ذلك الكوخ الصغير. كانت السيارة في الخارج، وهذا يعني أن نيال ما زال هناك. تساءلت اليسون عما اذا كان نيال قد أخبر والده، بكل التفاصيل، وعندما حاولت تصور مشاعر الأب شعرت بغصة خانقة في حلقها. فقد كان الأب يحقد على عائلة ماكاي اكثر من أبنائه، ولا شك أن الانتقام يعطيه احساساً بالراحة والتشفي. واصلت طريقها مصممة على اخفاء مشاعرها أمام تلامذتها، إذ يجب ألاّ يشعروا بأي تغيير خاصة أنهم أطفال أذكياء يستطيعون فهم الأمور وتفسيرها... ومن ثم نقلها الى كل القرية في غضون ساعات قليلة.

استطاعت اليسون أن تنسى كل شيء وتركز ذهنها على عملها. بل وتمكنت من الركض مع الأطفال على طول الطريق القروي، بحيث أنها عندما وصلت الى بيتها متعبة ومتقطعة الانفاس، كانت متاعبها قد زالت تقريباً.

لكن المتاعب عادت فوراً عندما لمحت سيارة نيال متوقفة أمام منزلها. وما كادت تقترب حتى رأت نيال يخرج من السيارة ويفتح الباب المجاور لوالدتها التي كانت تجلس الى جانبه.

قالت الأم عندما لمحت ابنتها :

« يا الهي، هل انتهى النهار بهذه السرعة؟ »

ثم التفتت الى نيال وقال :

« هل تدخل لتناول بعض القهوة؟ »

ردّ نيال وهو يراقب اليسون :

« لا، شكراً يا سيدة ماكاي. يجب أن أذهب الى البيت لانهاء بعض الأمور. فأنا مسافر الى المدينة ولن أعود قبل يوم الخميس. هل عندك مانع في أن ازوركم عندما أعود؟ »

« لا أبداً. وداعاً يا سيد ماكين ».

استدارت اليسون وأسرعت الى البيت. تبعتها أمها بهدوء وأغلقت الباب خلفها في حين سمعتا صوت السيارة وهي تبتعد.

وقبل أن تفتح اليسون فمها فاجأتها أمها قائلة :

« لماذا أنت فظة معه الى هذا الحد؟ »

حدّقت اليسون بأمها مندهشة، وبادلتها الأم نظرة مستغربة مستنكرة.

فقالت اليسون :

« فظة؟ أنا لا استطيع حتى أن أنظر اليه، فكيف اتكلم معه؟ انه ينتزع بيتنا وجزيرتنا. . . وحتى أنت يا أمي، كيف تقبلين العمل معه؟ قولي لي بربك، كيف؟ »

هزّت الأم رأسها وأجابت بهدوء حازم :

« لقد أخبرني أنه أشار الى الموضوع أمامك. كنت أفضل أن أحدثك بالأمر شخصياً. . . على كل، أنا آسفة يا حبيبتي، لكن كيف يمكنني أن أرفض عرضاً مادياً مغرياً؟ »

همهمت اليسون بحزن :

« لكننا لسنا معدمين. . . وهناك المال الذي سيدفعه ثمناً للبيت ».

ردّت الأم بصوت حاد وقد بدا عليها الغضب :

« الا ترين الأمور على حقيقتها؟ انني أحب هذا المكان مثلما تحبينه أنت. لو أستطيع أن أعيده الى الحياة الرائعة بواسطة رسومي ولوحاتي. . . فلن أتردد. انه يملك المال اللازم، ومن الغباء أن أترك للآخرين أن يقرروا الالوان المناسبة للغرف والقاعات والردهات بينما أستطيع أنا أن أتعامل معها بأحاسيس مختلفة. . . الا ترين هذا الجانب من الأمور؟ »

هزّت رأسها باذعان واحساس بالارتياح بملأها لأنها لم تثر الموضوع مع أمها من قبل. ولكن الذي استغربته هو كون خطوات نيال مدروسة ومنطقية وتثير الاعجاب.

قالت بحنان :

« أنا متأسفة يا أمي. المشكلة أنني أحس بأنه يسرق كل شيء مني ».

نظرت السيدة ماكاي الى ابنتها بعينين تشعان حناناً وقالت :

« يجب أن لا تفكري بهذه الطريقة يا حبيبتي. فهو ليس سيئاً كما تتصورين، بل هناك أشياء لطيفة فعلا في شخصيته لا أستطيع تفسيرها أو

وصفها ».

ابتسمت قليلا ثم تابعت قائلة :

« يجب أن لا أدعه يسمع هذا الاطراء. وبالمناسبة، لقد ذهبنا الى المحامي هذا الصباح ».

سألت اليسون وقلبها يعتصر ألماً :

« توقعت ذلك. اذن، أصبح الأمر مؤكداً؟ »

« تقريباً. بالطبع ما زالت هناك الاجراءات القانونية اللازمة قبل ابرام العقد الذي سيكون بعد اسبوعين أو ثلاثة تقريباً. . . بعد ذلك سيصبح البيت ملكاً له ».

قالت اليسون باستسلام :

« . . . وعندها يجب أن نغادره؟ »

أجابتها الأم وهي تجرها من ذراعها :

« نعم، في البدء سيكون الأمر صعباً، لكننا سنعتاد بعد ذلك. هيا بنا الى المطبخ. ترى ماذا أعدت جسي من طعام؟ »

مر الأسبوع بسرعة. وعندما عادت اليسون يوم الخميس من المدرسة، وجدت رجلا قصير القامة يحمل معدات هندسية للقياس ودفتراً صغيراً لتسجيل الملاحظات. هزّ الرجل رأسه محيياً وأكد لأليسون أنه سيحاول عدم ازعاج سكان البيت قدر الأمكان خلال عمله.

كانت اليسون مهتمة بمعرفة خطط نيال بالنسبة للبيت، لذلك سألت الرجل عما اذا كان بامكانها مراقبته وهو يعمل، فأجابها مسروراً بدون أن يدرك بالفعل طبيعة نواياها. وسرعان ما اتضحت الصورة لأليسون، فنيال لا ينوي تغيير طابع البيت الخارجي بل سيكتفي بتقسيم غرف النوم الكبيرة، وهذا بدوره لن يؤدي الى تغيير الخارج لأن لكل غرفة نافذتين أو أكثر. احدى الغرف الصغيرة في الدور الأول ستتحول الى حمام، وكذلك احدى غرف العلية. والشيء الوحيد الذي سيتغير خارجياً هو سلالم النجاة التي ستمتد من الدور العلوي الى الدور الارضي، ولكن الرجل أكد لأليسون أن السلالم ستكون منزوية وغير ظاهرة للعيان على الاطلاق.

رافقت اليسون الرجل الى الباب الخارجي بعد أن أنهى جولته مؤكداً لها أن الحصول على ترخيص باجراء التعديلات لن يكون صعباً. ودعته بقلب

مثقل وهي تدرك أن أيام الهدوء قد شارفت على الانتهاء، فغداً تبدأ الايدي العاملة مهمة التغيير والتبديل. . . ولن يعود البيت كما كان في الماضي، ابداً. . . ابداً. .

توجهت الى غرفة الرسم حيث أمها وقرعت الباب المغلق قبل أن تدخل.

قالت أمها دون أن ترفع عينيها عن اللوحة التي بين يديها :

« أدخلي يا حبيبتي، هل رحل الرجل؟ »

ردّت اليسون بالايجاب، فتابعت الأم قائلة :

« حسناً. لم أكن أحتمل وجوده. هل. . . هل سيغير كثيراً في البيت ».

روت اليسون لأمها كل ما سجلته ذاكرتها من تفاصيل عن خطط التغيير في الدور الثلاثة، وعندما انتهت هزّت الأم رأسها وتنهدت بارتياح قائلة :

« الحمدلله. انه لن يغير فيه كثيراً ».

« هل كانت لديك شكوك في هذا المجال؟ »

« لا، لكن لا أحد يدري في مثل هذه الأمور ».

قالت اليسون بهدوء :

« لم يتأخر الوقت بعد على تغيير الرأي ».

نظرت اليها أمها قائلة :

« أنت تكرهينه كثيراً، اليس كذلك؟ »

« أجل أنا أكرهه ».

ركّزت السيدة ماكاي نظرها في وجه اليسون وهي تقول :

« لم أرك في حياتي على هذا الشكل. كنت أعتقد أنك حساسة الى درجة تمنع عنك تأثير النزاعات العائلية، لكنني أرى العكس. فلماذا تكرهينه؟ »

هزّت اليسون رأسها بتوتر واضح. ما تود أن تقوله لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات، فهي لم تعد قادرة على كشف مشاعرها ومخاوفها الدفينة. لا تستطيع أن تعبر حتى لأمها الطيبة القلب عن الاضطراب الذي يعتريها كلما كان نيال قريباً منها. لذلك اكتفت بالقول :

« لعل الكراهية في دمي يا أمي. تماماً كما كانت في دم أليك، كما تذكرين. الفرق أنه كان قادراً على القتال. . . أما أنا فلا. »

وحاولت أن تضفي على الجو مسحة مرح، فأضافت تقول :

« تصوري أنني أتعارك مع نيال ماكبين الشرس ».

لكن أمها لم تضحك، بل نظرت الى اللوحة امامها وقالت بهدوء :

« أعتقد أنه رجل قاس إذا ما أسيء اليه، فلا تحاولي الاحتكاك به كثيراً ».

ردّت اليسون بسرعة وعيناها تشعان غضباً :

« هل توجهين اليّ تحذيراً؟ »

« أنني أوجه نصيحة أم يا اليسون. فأنا لا أريد أن أراك مجروحة الكرامة. أمثاله من الرجال يمكن أن يكونوا قساة الى حد كبير. لا تنسي أنه أمضى طفولة قاسية وزار الكثير من بلدان العالم وجمع ثروة لا بأس بها. . . وهذا يخلق مزيجاً من المشاعر في الرجل. لقد أحسست قوته المتذبذبة عندما قابلته أمس. صحيح أنه قادر على اخفائها، لكنها موجودة باستمرار. . . مشاعر فولاذية تحت مظهر حديدي. انها موجودة في عينيه وفي وجهه، ذلك الوجه المميز لشاب في مثل عمره. انني أتمنى أن أرسمه يوماً ما. »

سمعت اليسون قرع جرس الباب الأمامي فانتهزت الفرصة لتغير الحديث قائلة :

« انه هو. سوف أذهب لأفتح الباب ».

استدارت وخرجت مسرعة قبل أن تتمكن الأم من رؤية تأثير كلماتها التي أزعجت اليسون فعلاً وأكدت لها صدق ما لاحظته عليه من قبل. ولكن إذا اعتقدت الأم أن باستطاعتها الضغط على ابنتها بهذه الوسيلة، فانها تكون أدرى بحقيقة نيال ماكبين اكثر من معرفتها بشخصية اليسون.

عندما وصلت اليسون الى الباب، كانت جسّي قد سبقتها اليه وأدخلت نيال قائلة له :

« سوف أخطر السيدة ماكاي بحضورك »

لكنها توقفت عندما رأت اليسون. ابتسمت اليسون بحرارة وقالت :

« لا بأس يا جسي ».

ولكن هذه البسمة غابت عندما التفتت إلى نيال قائلة :

« سوف أقودك إلى أمي يا سيد ماكبين، فهلاّ تبعتني ؟ ».

« شكراً لك ».

انحنى قليلاً لجسي قبل أن يلحق اليسون التي استدارت عائدة من حيث

أتت. سارت منتصبة القامة وهي تحس بنظراته القاسية تلاحقها. واستغربت اليسون كيف أن وجوده يشعرها دائماً بالانزعاج وكأنها تريد أن تهرب منه.

قرعت على الباب وفتحته قائلة :

« تفضل يا سيد ماكيين ».

نظر مباشرة في عينيها، فاضطرت إلى إبعاد بصرها أمام نظراته الحديدية الباردة. لكنه لم يقل أكثر من كلمة شكر، ثم دخل الغرفة. أغلقت اليسون الباب خلفه بيد مرتجفة وسمعته يقول :

« لقد وصلت الآن من المدينة. هل جاء أحد ؟ »

واختفى الصوت تماماً عندما تركت المكان هاربة من صوته ووجوده..

الآن فقط أدركت اليسون لماذا تجده الأم جذاباً. فصوته ـ مع الأم طبعاً ـ كان دافئاً وصادقاً كصوت أي رجل لطيف في حضرة سيدة محترمة. وفكرت اليسون وهي تغادر البيت إلى الحديقة أنه عندما يمتلك المكان وتصبح أمها مجرد موظفة عنده، فلا شك أن اللطف سيزول وتظهر طبيعته الحقيقية... وعندها فقط ستكتشف الأم كل الواقع، لكن الأوان يكون قد فات آنذاك.

عند المساء، أبلغت السيدة ماكاي ابنتها أن نيال سيأتي في نهاية الأسبوع لاجراء بعض القياسات والحسابات المتعلقة بمواد البناء اللازمة للتعديلات المقترحة. نظرت اليسون إلى أمها بغضب قائلة :

« وبالطبع، وافقت على طلبه ».

ردّت الأم بحزن :

« طبعاً، أنا آسفة يا حبيبتي لكن الأمور يجب أن تسير. وعليك أن تظلي خارج المسألة كلها. لماذا لا تتصلين بصديقتك ميغ التي لم تشاهديها منذ مدة وتسألينها ما إذا كانت مستعدة لاستقبالك في عطلة نهاية الأسبوع ؟ »

« إنها فكرة. سأتصل بها فوراً. سأكون مسرورة لرؤيتها مرة أخرى ».

لكنها أضافت قائلة لنفسها: وسأحدثها عن هذا الشخص الكريه وأخفف من الأعباء التي أحملها من جراء وجوده. طلبت اليسون رقم هاتف صديقتها وهي تتمنى أن لا تكون ميغ قد قررت الذهاب إلى مكان بعيد مع زوجها بيل والأولاد. وعندما سمعت ميغ صوت صديقتها هتفت

بسرور :

« أهلاً وسهلاً يا اليسون، كم أنا مشتاقة لرؤيتك. ستأتين الجمعة مساء بسيارتك ؟ اني انتظرك على احر من الجمر. »

فرحت اليسون كثيراً لسماع صوت صديقتها وأدركت أنها ستكون قادرة على الافضاء بمكنونات صدرها إلى تلك الصديقة القديمة... وهذا ما خفف عنها بعض العناء.

راقبت ميغ صديقتها وهما تتناولان القهوة وقالت :

« يبدو أنه كريه جداً، لكنه حسب كلامك ثري جداً. أنا متأكدة أنك تبالغين في الوصف »

ضحكت اليسون بسعادة افتقدتها طيلة الأسبوع الماضي. كانت الساعة قد جاوزت منتصف ليلة الجمعة، والصديقتان جالستان تتسامران حوالى النار، وفي الخارج مطر غزير لا ينقطع. في إحدى الغرف رقد طفلا ميغ التوأمان البالغ عمرهما ثلاث سنوات، أما الزوج فقد ذهب إلى غرفته بعد أن حذرهما قائلاً :

« سأترككما مع ثرثرتكما التي لا تنتهي. لكن أرجوكما أن لا توقظاني بضحكاتكما العالية... وإلا هجمت عليكما وعاقبتكما ».

أدى هذا التحذير الضاحك إلى إيجاد جو من المرح في جلسة الصديقتين الحميمتين. كانت ميغ الصدر المريح الذي تحتاجه اليسون، فقد استمعت إلى حكاية صديقتها باهتمام منذ أن جاء نيال إلى القرية وحتى التحذير المبطن الذي أطلقته الأم بعد ظهر ذلك اليوم.

راقبت اليسون صديقتها ميغ التي قامت لتجلب فنجاني القهوة مرة أخرى، فأحست بارتياح شامل ما كانت تتوقعه بمثل هذه السرعة. كانتا في العمر نفسه تقريباً وتخرجتا سوياً من معهد ادنبره، وافترقتا: ميغ إلى دينجوآل واليسون إلى شيلبيغ.

كان قد مضى على التحاق ميغ بسلك التعليم سنة واحدة فقط عندما استطاع مدرس الرياضة الوسيم بيل غراهام أن يغزو قلبها وينقلها إلى عش الزواج الذهبي. ومع أن الزوجين قررا مواصلة العمل عدة سنوات قبل الانجاب، إلا أن إرادة الله حققت العكس. فبعد سنة فقط، كانت اليسون تهنىء صديقتها بميلاد طفليها التوأمين. وطيلة هذه المدة ظلتا على

اتصال مستمر عبر الهاتف أو بواسطة الرسائل، وكثيراً ما ذهبت ميغ مع زوجها وطفليها لنصب خيمتهم في أراضي بيت اليسون. وكانوا يرفضون بحزم استعمال غرف النوم في البيت، ويكتفون بتناول الفطور يوم الأحد مع جميع أفراد العائلة.

بعد أن ملأت ميغ فنجاني القهوة، عادت إلى مقعدها متسائلة :

«نيال الم ينقذك في السابق من حادث جرى لك ؟».

انفجرت اليسون ضاحكة :

«إنه هو. والسبب نزاع عائلي قديم... وهكذا ترين».

«لكنني بصراحة لا أجد الرابط بين الشيئين. وأنا أتذكر أننا كنا نتحدث عن الموضوع في الكلية بنوع من الرومنطيقية..»

احمر خداها عندما واجهتها اليسون بنظرة استغراب لكنها تابعت تقول :

«ما أقوله صحيح. لا شك كنتما عدوين لدودين، لكنه أنقذك من ذئب بشري، ثم عانقك أقصد أن ما حدث لك هو ما كنا نحب أن نقرأ عنه في سن المراهقة، ألا تتذكرين يا اليسون ؟».

... وتذكرت اليسون. استغرقت في الصمت للحظات وهي تسترجع المتعة التي عاشتها في الماضي. وبلا شك، كان هناك جو من الرومنطيقية حول القصة كلها في ذلك الوقت... أما الآن، فمجرد ذكر نيال يثير في أوصالها قشعريرة باردة.

«يجب أن تريه الآن يا ميغ حتى تدركي ما قصدت. فهو مختلف تماماً. هناك شيء في شخصيته يثير الفزع والخوف».

امعنت ميغ النظر في وجه اليسون قائلة :

«حسناً. لا أرى إلا واحداً لذلك. عليّ أن أقنع بيل بحمل عدة التخييم والذهاب لقضاء عدة أيام عندكم... وعندها سأرى كل شيء على الطبيعة».

حدّقت اليسون في صديقتها ثم انفجرت ضاحكة :

«هل ستفعلين ؟ لا شك أنك فاعلة. آه يا ميغ، لماذا لا تسكنون بالقرب منا ؟»

ابتسمت ميغ :

«ربما ننجح في نقل مدينتنا إلى مكان قريب من قريتكم».

جاء يوم الاثنين ممطراً وبارداً. وقد انعكس الجو على التلامذة الذين بدوا في حالة متوترة. فيونا ستيوارت، التلميذة الهادئة ضربت ويلي ماكلويد لسبب غير معروف، مما خلق حالة من الفوضى في الغرفة أخذت وقتاً طويلاً من اليسون كي تعود إلى طبيعتها. وعندما حلّ الهدوء اخيراً، كانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر. أطلقت اليسون سراح التلامذة وهي متأكدة ان الشجار سيندلع مجدداً بمجرد مغادرتهم باب المدرسة.

توجهت إلى النافذة لتراقبهم وهم يركضون على طول الطريق. وعند الباب، شاهدت رجلاً يخلي الدرب للصغار المسرعين... وسرعان ما لاحظت انه نيال ماكبين، وهو يتوجه صعوداً إلى المدرسة. نظر إلى الأعلى وشاهدها. كانت على وشك أن تبتعد عن النافذة لكنها توقفت. انها موجودة في مكانها الطبيعي، لذلك قررت البقاء بغض النظر عن وصول الزائر غير المرغوب فيه. لعله يقصد أحد البيتين الواقعين خلف المدرسة ؟ استبعدت هذا الاحتمال لأن سكان المنزلين أرملتان طاعنتان في السن تعيشان وحيدتين مع بعض القطط، وقلما تختلطان بسكان القرية.

ابتعدت اليسون عن النافذة قليلاً عندما وجه نيال نظرة أخرى إلى غرفتها، ثم سارت باتجاه طاولتها لترتيبها تمهيداً للعودة إلى المنزل. وبعدها لملمت حاجياتها، وارتدت معطفها وسارت نحو الباب... الذي انفتح فجأة وظهر منه ماكبين. قائلاً بهدوء :

«هل أستطيع الدخول ؟»

ترددت قبل أن تقول :

«تفضل. ماذا تريد يا سيد ماكبين ؟»

قال :

«أريد أن أتحدث إليك قليلاً».

اضطرت اليسون إلى توجيه نظرها نحو ربطة عنقه لأنها كانت عاجزة عن النظر مباشرة إلى عينيه، على الأقل حتى تزول الصدمة التي أحدثها دخوله. تنفست بعمق قبل أن تنظر إليه وتقول :

«أعتقد أنه من الأفضل لك أن تقول ما تريد لأمي. أنا متأسفة، لكنك تتعامل مباشرة معها».

هزّ رأسه ببطء وقال :

« لا . ما أريده لا يتعلق بالبيت. الموضوع على علاقة بالمدرسة ».

« لست أفهم »

ظهرت علامات التعجب على وجه اليسون، أما هو فقد تابع الحديث قائلاً :

«أؤكد لك أن الأمر ليس مزحة. جئت لاسأل عما إذا كان بامكانك استقبال تلميذ آخر في صفك ؟ »

حاولت جاهدة أن تخفي استغرابها المتزايد :

« طبعاً طبعاً. هناك سبعة تلامذة فقط. هل أفهم من كلامك أنك تريد تسجيل تلميذ في المدرسة ؟ »

« أجل ».

توجهت اليسون إلى طاولتها وأخرجت دفتر التسجيل الرسمي وفتحته على إحدى الصفحات في حين كان نيال يراقبها بصمت. وطيلة هذا الوقت كانت غير مصدقة لما يحدث.

نظرت إليه متسائلة :

« ما هو اسم التلميذ وعمره ؟ ».

« أسمه أندريه لويس غارسيا وعمره ست سنوات ».

سجلت الاسم والعنوان ثم سألت :

« ما هو عنوانه ؟ »

«عنوانه الحالي غير مهم. عندما يصل إلى القرية سيسكن معي أنا في منزل والدي في شيلبيغ ».

كتبت اليسون العنوان كاملاً، ثم قالت :

« أعتقد أنه ليس انكليزياً. هل يمكن أن أعرف جنسيته والمدة التي ينوي قضاءها هنا. ؟ »

« انه برازيلي. وهو. . . »

توقف عن الكلام وقد علت وجهه ملامح قاسية وعندما لاحظ نظرات اليسون المتسائلة حوّل عينيه إلى قاعة الصف. ظلت اليسون صامتة للحظات خوفاً من تحطيم الصمت المتوتر الذي خيّم عليهما. لكنه تدارك الموقف وقال :

« سوف يعيش هنا إلى الأبد. هنا وطنه الجديد ».

شكرته وأخذت تردد ما تكتبه :

ثم أغلقت الدفتر الكبير قائلة :

« عليّ أن أبلغ السلطات الرسمية. فمتى تريده أن يباشر الدراسة ؟ »

سيصل يوم الاربعاء المقبل. هل ترين أن الاثنين الذي يليه سيكون مناسباً ؟ »

«حسناً، يوم الاثنين. لكنني أريد أن أعلمك بأن المدرسة قد تغلق أبوابها عند مطلع العام الجديد. ففي ذلك الوقت لن يكون هناك غير تلميذين. . . بالأحرى ثلاثة. وهؤلاء سينقلون إلى مدرسة أخر بعيدة ».

هز رأسه قائلاً :

« سأهتم بهذه المشكلة في وقتها. أما الآن فانه سيتابع دروسه هنا أليس كذلك ؟ »

« نعم ».

نقل نيال نظره إلى الغرفة متأملاً المقاعد والطاولات والجدران المزينة برسوم الأطفال. لا شك أن المدرسة لم تتغير كثيراً عما كانت عليه في أيامه. المقاعد ما زالت هي نفسها، وعليها خربشات وكتابات أجيال متعاقبة مع الأطفال.

لاحظت اليسون أن عينيه فقدتا بعض القسوة التي كانت فيهما قبل قليل.

سألها وهو يتوجه إلى الباب :

« هل هذا كل شيء ؟ »

«أجل. لكنّ هناك شيئاً آخر نسيت أن أسجله. من هو ولي أمر اندريه ؟ »

وبينما كانت اليسون منهمكة بإعادة فتح السجل الرسمي جاءها الجواب المفاجيء :

« أنا ولي أمره ».

اخفت اليسون دهشتها وهي تسجل « ولي الأمر / السيد نيال ماكين ». . . . وقبل أن تنتهي فاجأها مرة أخرى بقوله :

« مهلاً كان يجب أن أضيف اسم ماكين بعد اسم غارسيا. . . فأندريه

هو ابني ».

وبفعل الصدمة العنيفة، لم تجد اليسون غير العبارة التقليدية :

« لم أكن أعرف أنك متزوج »

تقلصت عضلات وجهه وهو ينظر إليها بحدة قائلاً :

«ولماذا يجب أن تعرفي ؟ »

ثم استدار مغادراً قاعة الصف.

٤ - لعبة غامضة

وجدت اليسون نفسها تنتظر على أحرّ من الجمر مجيء يوم الأربعاء حتى تتعرّف إلى ابن نيال ماكين. ولا شك أنه لم يشر إلى هذه الواقعة أمام أي إنسان غيرها، والدليل على ذلك الأحاديث التي ملأت القرية عن عملية بيع البيت بدون الإشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى هذا الابن، أو إلى زوجته. لكن المسألة اتضحت الآن بالنسبة لأليسون، فكوخ أبيه يتسع لعائلة كبيرة. وأكثر فأكثر وجدت نفسها مهتمة بمعرفة هوية زوجته وطبيعتها. توقعت أن تكون شابة برازيلية على قدر كبير من الجمال، فهذا وحده يرضي غرور نيال. . . ولا بدّ أن تكون غنية أيضاً مما يفسر الثروة التي هبطت عليه فجأة. ولكن، هل يعقل أن تقبل زوجة غنية وجميلة مثلها بالاستقرار في منطقة منعزلة مثل شلبينغ ؟

غادرت اليسون المدرسة بعد ظهر الأربعاء مستعملة سيارتها في ذلك النهار الممطر. كان نيال قد غادر القرية مساء أمس وحتى الآن لم يعد. ربما وصلت زوجته وابنه إلى أيتفرنيس قادمين من لندن، فذهب إلى استقبالهما وقضاء ليلة معهما هناك قبل أن يحضرهما إلى القرية. . . أو ربما أراد اعدادهما للعيش في القرية ومواجهة الأوضاع الجديدة. . . أو ربما. . .

هزّت اليسون رأسها في محاولة لطرد هذه الأفكار وأسرعت عائدة إلى البيت. لماذا هذه التساؤلات والافتراضات حول رجل قلب حياتها رأساً على عقب ؟ أدركت أنّ عليها تناسيه، أو على الأقل إهماله ؟ إذا ما أرادت أن تعيش حياة طبيعية بعد الآن، خاصة أنه سيصبح جارها لسنوات وسنوات. وفكرت باستغراب، لعل مسألة زواجه ستساعد على إقامة نوع

من التعايش معه. ».

سمعت صوت محرك سيارة خلفها، وعندما نظرت في المرآة الخلفية شاهدت سيارة نيال تتجاوزها مسرعة، لمحتها للحظات، وبدا لها أن أحداً لا يجلس إلى جوار نيال.

وما أن أطل يوم الخميس حتى كانت القرية تضج بالأنباء. الروايات التي أطلقت كانت متنوعة ومختلفة، ولكنها تدور حول ذلك الصبي الصغير الذي لم تره أليسون في سيارة أبيه أمس. كان صغيراً وشاحباً، وفي قاعة الصف، وقف إلى جوار النافذة ممسكاً بالستائر وكأنه يحتمي من شيء مجهول.

عندما دخلت اليسون مكتب البريد بعد انتهاء الدراسة في ذلك اليوم، خيّم صمت ثقيل على الموجودين. . . وقطعت السيدة فينليسون الصمت كعادتها قائلة :

« هل صحيح يا أليسون، أنّ ماكبين متزوج من ابنة تاجر قهوة برازيلي ثري جداً ؟ »

نظرت اليسون إلى السيدة فينليسون باستغراب شديد، وهي تدرك أنّ عليها عدم الدخول في عالم الشائعات هذه، خاصةً أنها مدرّسة الصبي. قالت :

« لا أعرف. ولكنني لا أعتقد ذلك. فحتى الآن لم أرَ زوجته ».

وهنا تدخلت الأختان ديزي ودوريس اللتان تعيشان قرب كوخ عائلة ماكبين، وهما تمضيان وقتهما في مراقبة الناس والاستماع إلى أخبارهم.

قالت ديزي :

« ونحن لا نعرف أيضاً. لكنه وصل مع الحقائب أمس. كانت الحقائب. . . »

قاطعتها أختها دوريس :

« جميلة جداً، وجديدة. وهي تحمل بطاقات طيران ».

وجاء دور ديزي مجدداً :

« كتب عليها ريو ـ لندن »

كان من الصعب على اليسون أن تناقشهما، فهما تقاطعان بعضهما دائماً. . . لكن المعنى في كلامهما واضح تماماً. كان الموجودون

في مكتب البريد ينظرون الى اليسون وكأنهم يتوقعون منها أن تعرف كل شيء. اتضح السبب عندما قالت دوريس فجأة :

« ألم يأت الى المدرسة لرؤيتك يوم الاثنين الماضي ».

قاطعتها ديزي :

« لا شك أنه يريد تسجيل الصغير »

وأخذت دوريس دفة الحديث مجدداً :

«ومن الطبيعي أن يذكر لك اسمه و. . . »

فجأة صمتت دوريس ليس لأن أختها قاطعتها، بل لأن الباب خلف اليسون انفتح بهدوء وظهر منه نيال ماكبين بنفسه. غادرت دوريس وديزي المكان وهما تحييان نيال الذي ردّ التحية بلطف، وتشاغلت المرأة الثالثة بمطالعة بعض المنشورات. . . أما اليسون فقد انصرفت الى شراء الأغراض التي جاءت من أجلها اصلاً، بدون أن تنسى الرجل الذي يقف خلفها.

سمعت صرير القلم على بعض الأوراق التي عبأها نيال، ولاحظت أن السيدة فينليسون عضّت على شفتها وهزت رأسها بهدوء وكأن شكوكها قد تحقّقت. تمنت اليسون لو تستطيع الهرب. وكم شعرت بالارتياح عندما تسلمت أغراضها واستدارت خارجة. . . وفي هذه اللحظة لمحته منكباً على كتابة برقية.

في الخارج، أخذت اليسون نفساً عميقاً وهي تشعر بالارتياح لخروجها من الجو الموبوء المعتم في مكتب البريد. وبما أن الحياة روتينية في القرية، فان السكان يجدون تسلية في تتبع أخبار الآخرين. . . وبالتحديد تلك التي تثير أكثر من علامة استفهام. ومع أن اليسون حاولت دائماً الابتعاد عن أجواء الثرثرة المتفشية، إلاّ أنها وجدت نفسها أكثر رغبة من الجميع في معرفة المزيد عن الطفل الغريب. . . وأيضاً معرفة الزوجة الغامضة التي لم تظهر على مسرح الأحداث بعد.

سمعت السيدة ماكاي وجسي حكايات كثيرة عن نيال ماكبين، انه مطلق، انه أرمل، زوجته قادمة الأسبوع المقبل، انها ممثلة سينما برازيلية. . . بل هي مطربة مشهورة، الطفل عاجز عن الكلام باللغة الانكليزية. . . لا، انه يتكلمها بطلاقة. كانت الروايات كثيرة ومتناقضة

وكلها تابعة من مخيلة أهل القرية الذين لا عمل لديهم إلاّ تمضية الوقت الطويل في الأحاديث والأخبار.

كانت جسي هي الأولى التي تقول كلمات لها معنى حول الموضوع :

« وماذا ستفعل الزوجة المسكينة عندما يغادر ابنها المدرسة بينما يعمل زوجها في الفندق هنا؟ عليها أن تأتي فوراً وإلاّ أصبح الطفل وحيداً ومنزوياً. هل تتصور أن يرعى ماكبين العجوز هذا الولد؟ لا أعتقد ذلك، فكل همه الآن تمضية أيامه مع أصدقائه في النادي. . . »

تبادلت الأم وابنتها نظرات الموافقة. وبدأت اليسون تدرك الحقيقة كما صورتها كلمات جسي. لكن السؤال الذي ظل يلح على فكرها هو، إذا كانت الزوجة قادمة ولا ريب، فلماذا لم تأت مع الطفل في الوقت نفسه؟

تساءلت اليسون عما اذا كان نيال سيرسل الصبي وحده إلى المدرسة صباح الاثنين؟ وتمنت ألاّ يفعل تاركاً الصغير يواجه لأول مرة أمكنة جديدة وأوجهاً غريبة عليه. وعندما حلّت الساعة التاسعة نظرت الى الصغار قائلة :

« كلكم تعرفون أن تلميذاً جديداً سينضم الينا اليوم. انه أصغر منكم جميعاً وقد جاء مؤخراً من أمريكا الجنوبية. وأتمنى عليكم أن تفعلوا ما بوسعكم لجعله يشعر بالراحة والاستقرار ».

علت همهمة في القاعة، تجاوزها صوت فيونا القوي :

« لقد تعرفت اليه يا آنسة اليسون. انه يقيم في الكوخ المجاور. وهو ولد خجول وضعيف، وسأعمل جاهدة كي أساعده ».

وقبل أن تنهي اليسون كلمة الشكر، تابعت فيونا تقول :

« انه يمضي الليل في البكاء والنحيب منذ أن وصل الى البيت ».

تركت هذه الكلمات تأثيراً غريباً على اليسون، ووقعت على قلبها مثل ضربات قاسية مؤلمة. تنهّدت بعمق وقالت :

« لا شك أنه يحن الى وطنه، لذلك يجب أن نبذل جهدنا كي نسليه ونرفه عنه ».

وفي أعماقها كانت تشعر بالكراهية تجاه أب قاس لا يبالي بمعاناة ابنه. كيف استطاع أن يحضر هذا الولد الصغير من وطنه الى بلد غريب

عليه، للعيش مع رجلين. . . حيث لا وجود لدفء الأم تمسح عن عينيه دموع الغربة، بل سرير بارد في غرفة صغيرة ينام فيها وحيداً؟

وفجأة، سمعت اليسون ضجة في القاعة، فالتفتت لتجد الطفل الصغير يده بيد نيال. كان الطفل في ثياب أنيقة يقف في ظل أبيه الذي غطى الباب كله. . . ولأول مرة لاحظت اليسون على وجه نيال نظرة انسانية هي غير نظرة الغرور والتكبر. كانت صورة الاثنين معبرة بحيث أدركت أنها زرعت في مخيلتها الى الأبد.

سارت اليسون نحو الباب وشفتاها تتحركان بشكل آلي. وعندما وصلت الى الصغير مدت له يدها قائلة :

« مرحباً يا أندريه ».

انتظرت عدة لحظات وهي تتمنى أن يستجيب ليدها الممدودة. وهكذا كان، ووجدت يده اليمنى مستقرة في يدها بهدوء وحزم. نظرت الى عينيه مباشرة فاذا بهما مثل عيني والده. . . مع ملامح من الوحدة والاستغراب والعجز. كان شاحب اللون، شعره أسود مثل شعر نيال وان كان أكثر نعومة، أنفه مستقيم وصغير ولم تكن هناك ابتسامة على الشفتين، فقط نظرة خوف من طفل يحاول جاهداً أن يكون شجاعاً، ولكن دون نجاح.

نظرت اليسون الى نيال الذي ابتسم بهدوء وكأنه يقرأ أفكارها ومشاعرها ثم قال :

« هل تريدين مني شيئاً يا آنسة ماكاي؟ »

« كلا يا سيد ماكبين. سيكون أندريه على ما يرام هنا. وسأهتم شخصياً بايصاله الى البيت عند الغداء ».

« شكراً لك ».

ثم التفت الى ابنه مربتاً على رأسه بلطف :

« وداعاً يا أندريه. كن عاقلا ».

واستدار مغادراً قاعة الصف قبل أن تستطيع اليسون الكلام.

اليسون تعرف أن اليوم الدراسي الأول مهم جداً في حياة الطفل، وأن أي شيء يحدث اليوم سيؤثر على مسيرته الدراسية الى الأبد. القت ابتسامة عريضة على القاعة وهي تشعر بالارتياح لأن تلامذتها طيبو

القلب. صحيح أن الصبيان مشاغبون قليلاً، لكنهم يحبون بعضهم ولا يخلقون المشاكل. نظرت اليسون الى هيثر البالغة من العمر ثماني سنوات وقالت :

« هيثر، أندريه سيجلس بالقرب منك. وأنت يا فيونا، تعالي معي الى المخزن كي نحضر كل ما يحتاجه اندريه من أدوات وكتب ».

وقفت الفتاتان باحترام . ثم توجهت هيثر وأمسكت يد أندريه بحنان، في حين سارت فيونا نحو اليسون. شعرت اليسون بالارتياح لتجاوب الفتاتين، وأدركت انها خطت خطوة بالاتجاه الصحيح.

مضى الصباح على ما يرام. وقد حاولت اليسون عدم التركيز على أندريه تاركة له مهمة الاندماج مع التلامذة الباقين حسب طريقته الخاصة. وسرعان ما اكتشفت أنه ذكي ومنفتح، ويتكلم الانكليزية بلكنة أجنبية مما يمكنه من التعبير عن نفسه مع الآخرين.

في وقت اللعب، ظلت اليسون في القاعة لتراقب من بعيد كيف سيستطيع هذا القادم الجديد أن يجد لنفسه مكاناً بين الصبية الكبار. . . لكنه قرر أن يبتعد عن المشاكل وظل في صحبة هيثر وفيونا. ابتعدت اليسون عن النافذة مبتسمة، فابن نيال ماكبين يسير على ما يرام. وهكذا بدأت حياة أندريه في مدرسة شيليغ. انها نقطة تحول في حياته. . . ولكنها لم تدر أنها ستكون نقطة تحول في حياتها أيضاً.

لم تر اليسون نيال ماكبين لعدة أيام بعد ذلك الصباح، مع أن سيارته كانت دائماً أمام كوخ العائلة في أوقات الظهيرة وعند المساء. أما أندريه، فقد بدأ يستقر في حياته الجديدة، وراح يتعامل براحة مع الأولاد الذين أخذوا يعرفونه الى ملاعبهم وألعابهم المختلفة. كانت اليسون تدرك أن الطفل خجول للغاية. . . ولكنها عاجزة عن حمايته من القسوة غير المتعمدة التي يطرح بها الأطفال اسئلتهم حول حياته السابقة.

ودعته بعد ظهر الجمعة بقلب مثقل وهي تتمنى أن يسمح له نيال باللعب مع الأولاد قرب الشاطىء اذ يبدو عليه أنه بحاجة الى الهواء الطلق والطعام المغذي لتجاوز نحافته الواضحة.

وقد فهمت اليسون من الملاحظات المتناثرة التي أبداها الأطفال أنه يلازم البيت عندما يعود من المدرسة بعد الظهر حتى صباح اليوم التالي

دون أن يغادره ابداً.

روت اليسون هذه المعلومات الى جسي وهما تتناولان الشاي بعد ظهر ذلك اليوم. فرفعت مدبرة البيت العجوز عينين حادتين الى اليسون وهي تقول :

« هل بدأت تميلين الى هذا الصغير؟ »

اضطرت اليسون للاعتراف بهذا الواقع مدركة أن شيئاً لا يفوت عيني جسي الفاحصتين :

« أجل. . . اني أهتم به كثيراً ».

قالت جسي :

« إذا أخذنا بعين الاعتبار مشاعرك نحو نيال ماكبين، فانني أستغرب موقفك من الابن! »

ردت اليسون :

« مشاعري نحو نيال ماكبين لا علاقة لها بهذه المسألة. لو أنك رأيت الابن لعرفت حقيقة موقفي منه. إنه صبي مسكين، انتزع من وطنه الى بلد غريب. . . وهو لا يحتاج إلا الى امرأة تعطف عليه وتهتم به ».

عضت اليسون على شفتها نادمة على كلامها هذا، لكن جسي كانت أسرع في الرد :

« كم أنا آسفة لك! آه لو أنك ترين تعابير وجهك وأنت تتحدثين عنه. هناك شيء وحيد يمكنك أن تفعليه من أجل الصبي. عندما يأتي نيال مرة أخرى اعترضي طريقه واسأليه عن موعد حضور زوجته. . . وقولي له السبب أيضاً ».

رمقت اليسون المرأة العجوز بنظرة حادة وقالت :

« لا أستطيع ذلك يا جسي. فأنا غير قادرة حتى على الحديث معه دون . . . مستحيل فهو سيهاجمني بشدة وفظاظة ».

« من أجل الطفل فقط ».

التقت عيون اليسون وجسي في نظرة عابرة، فهمت منها جسي الكثير. صحيح أن مدبرة البيت العجوز طيبة القلب ومرحة، إلاّ أنها تتحول الى لبؤة شرسة اذا ما تطلبت الظروف ذلك. وفي هذه اللحظة أحست اليسون أن العجوز محقة في كلامها. فقالت مبتسمة :

« معك حق. سأكلمه عندما يأتي ».

ردّت جسي بابتسامة ممائلة :

« حسناً، يمكنك أن تكلميه الليلة، فهو آت هذا المساء ».

ضحكت اليسون بدهشة :

« آه أيتها العجوز الماكرة ».

تلفّتت جسي حولها وكأنها تفتش عن الشخص الذي عنته اليسون بكلماتها الأخيرة، لكن اليسون تابعت تقول :

« لماذا هو آت الليلة؟ »

ردّت جسي :

« هناك بعض التفاصيل الصغيرة التي يجب البت فيها. فأدوات البناء ستصل الأسبوع المقبل، ثم يبدأ العمل فور توقيع عقد البيع ».

ردّت اليسون بهدوء :

« قبل بدء العمل يجب أن تغادر البيت ».

« أجل. لكن عملية ترميم الكوخ واجراء الديكور اللازم له ستبدأ الأسبوع المقبل، وقبل أن ننتقل ».

صرخت اليسون متسائلة :

« ماذا؟ ومتى تقرر هذا الأمر؟ »

« لا أدري، اتفقا على الأمر فيما بينهما. أعتقد أن أمك تريد أن تفاجئك. لذلك أرجو أن لا تقولي انني أخبرتك ».

« اطمئني يا جسي، لن اخبرها ».

لكن اليسون أحست بأنها طعنت من الخلف لأن كل هذه القرارات تتخذ من دون علمها. وبدا لها أن أمها تتآمر مع نيال ماكبين، وأنهما قررا ابقاءها خارج الموضوع برمته. اليسون تدرك أن خيالها يزين لها هذه الأفكار، لكنها لا يمكن أن تتجاهل التغير الذي طرأ على أمها مؤخراً. فهي تتكلّم وتتصرف وكأنها عادت الى الحياة من جديد، وكل ذلك بسبب الديكور الذي ستجريه للبيت تحت اشراف نيال.

عندما وصل نيال ماكبين ذلك المساء، كانت اليسون في الصالة مع أمها تشاهد التلفزيون. وما ان سمعت صوت الجرس حتى هبت واقفة وهي تقول :

« أنا سأفتح الباب. أريد أن أحدثه على انفراد أيضاً. »

بدأت الأم قائلة :

« اليسون ».

لم تدعها اليسون تكمل كلامها :

« لا يا أمي. الموضوع يتعلق بابنه ».

فتحت اليسون الباب لتراه واقفاً هناك عملاقاً صلباً. تردّدت في الكلام لاعتقادها بأنه لن يقبل تدخل أحد، لكنها استعادت شجاعتها عندما تذكرت وجه أندريه النحيل والحزين، وقالت :

« قبل أن تتوجه الى حيث أمي، أود أن أحدثك قليلاً يا سيد ماكبين ».

دخل الى القاعة الجانبية دون أن ينقل عينيه عنها وقال :

« نعم، ماذا هناك؟ »

تمنت اليسون لو كانا في غرفة أصغر من القاعة، فالاتساع يجعلها تحس بالضعف امامه. ومع ذلك لا مجال أمامها إلاّ المضي قدماً. فقالت :

« المسألة تتعلّق بابنك. قد تعتقد بأنني أتدخل فيما لا يعنيني، لكن ما يهمني فعلاً هو أندريه. انه صغير ولا حول له ولا قوة. فهل يمكنني أن أعرف متى ستأتي زوجتك من السفر؟ كما أرجو أن تسمح له باللعب مع الأطفال الآخرين بعد انتهاء الدراسة ».

وبينما هي تتكلم، لاحظت أن وجه نيال ازداد تجهماً وعبوساً. وعندما انتهت حلّ صمت مطبق على القاعة. وأخيراً خرق حاجز الصمت بقوله :

« هل هذا كل شيء ».

أجابت اليسون بصعوبة :

« نعم ».

« اذن سأجيب على السؤال الثاني أولاً. أندريه ولد حساس وضعيف البنية وغير معتاد على الألعاب الخشنة. فقد أمضى معظم سني حياته مريضاً، ولم يبدأ باسترداد العافية إلاّ مؤخراً. وعندما يتعرف الى المدرسة أكثر سأسمح له باللعب في الخارج. فأنا مثلك تماماً أقدر قيمة الهواء الطلق. أما بالنسبة للسؤال الأول، فما هو السبب الذي دفعك

لطرحه؟ »

انفجرت اليسون بصوت عال :

« اذا كنت تريد أن تسأل، فأنت لن تفهم السبب ابداً ».

ردّ باقتضاب وقسوة :

« جربي ».

استجمعت أنفاسها وقالت :

« حسناً، سأفعل. إنني أتكلم بصفتي معلمته الآن، وليس للسؤال أية علاقة بالأمور الشخصية. فهل تفهم؟ »

أجابها، وعيناه لا تحيدان عن وجهها :

« أعتقد ذلك ».

« إنه يحتاج الى حنان امرأة، الى من يكون بجانبه عندما يشعر بالوحدة والضيق كما يحدث معه الآن في هذا البلد الجديد. انه مجرد طفل عاجز دون وجود أمه. لقد سمعت من تلميذ يقطن قرب منزلكم أن أندريه أمضى الليالي الاولى في بكاء ونحيب... وكم كنت حزينة لسماع ذلك. أعرف أن كلامي هذا يبدو سخيفاً وعاطفياً لأن الرجال يريدون ابناءهم قساة وأقوياء... لكن أرجوك أن تهتم به، فهو طفل طيب وممتاز ».

« إنني أصدق اهتمامك به ».

« أجل، إنني مهتمة به كثيراً ».

التقت نظراتهما للحظات في ما يشبه الهدنة المؤقتة. ولمحت اليسون على وجهه ملامح التردد، قبل أن يحزم أمره ويقول :

« سأخبرك الحقيقة. أمه لن تأتي أبداً.... فهي ميتة. لقد توفيت قبل وقت قصير في ريو دي جانيرو. وكل ما تبقّى له الآن... أنا ».

استوعبت اليسون كلماته ببطء شديد :

« إنني آسفة جداً... لم أكن أعرف! ».

« وكيف ستعرفين؟ لقد أخبرتك لأنني أصدق اهتمامك بمصلحة الولد، ولهذا أشكرك. ولكنني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً بل عليه أن ينشأ في عالم صعب، تماماً كما نشأت أنا ».

هزت اليسون رأسها قائلة :

« أرجوك أن تسامحني لأنني سألت. سآخذك الآن الى حيث أمي ».

وقبل أن تصل الى باب غرفة الجلوس، توقفت فجأة وسألت :

« ماذا سيحل بالصغير عندما يبدأ العمل في البيت؟ أقصد من سيهتم به ويرعاه؟ »

توقف بدوره قائلاً :

« لم أفكر بهذا الموضوع بعد. اهتمامي الأول كان أن أحضره الى هنا قبل أن... »

تردّد للحظات ثم أضاف :

« سوف أفكر بحل ما. أبي سيكون في المنزل، وهناك عدة رجال سيعملون في البيت... وبالتالي لست مضطراً لتمضية وقت طويل في العمل ».

« فكرة جيدة ».

تساءلت اليسون وهي تفتح الباب عما تردد نيال في قوله. فتحت الباب وقالت :

« السيد ماكبين يا أمي ».

شكرها وتوجه نحو الأم مسلماً. خرجت اليسون وكل فكرها مع أندريه. إنه وحيد فعلاً. مسكين هذا الطفل... كم تتمنى لو تستطيع احتضانه بحنان ومحبة.

بدأت معدات البناء تصل الى البيت مع مطلع الأسبوع وعندما عادت اليسون الى البيت بعد ظهر الاثنين شاهدت شاحنة محملة بالخشب يقوم على تفريغها رجلان شقيقان تعرفهما اليسون من القرية المجاورة. القت عليهما السلام وهي تتساءل عما اذا كانا سيقومان بالعمل أيضاً. التقتها جسي فوراً وقالت :

« أمك في الكوخ، وهي تريدك أن تلحقي بها بأسرع ما يكون ».

وضعت اليسون حقيبتها على كرسي مجاور وقالت :

« سوف أذهب الآن يا جسي ».

لم تكن اليسون تتوقع المفاجأة التي كانت تنتظرها في الكوخ. وجدت الباب مشرعاً. أصوات تنبعث من الداخل. اعتقدت أن أمها تتحدّث مع نيال... لكن الشخص الذي لمحته في غرفة الجلوس مع

السيدة ماكاي لم يكن نيال، بل هو رجل تتذكره تماماً من الليلة المشؤومة قبل تسع سنوات... إنه جوني غوردون الذي أصبح رجلاً ناضجاً وجذاباً.

أخفت اليسون دهشتها وتوجهت الى جوني الذي استدار نحوها مبتسماً ومسلماً بصوته الهادىء العميق :

« أهلا بك يا اليسون ».

تصافحا بحرارة، لكن أفكار اليسون كانت تتساءل: من المؤكد أن هذا الرجل ليس الذئب الذي قاتله نيال في تلك الليلة. كم يبدو مختلفاً الآن. فقد اختفى الشاب ذو العينين الزائغتين وحل محله رجل في الثلاثين، طويل القامة، أنيق المظهر ولطيف المعشر ايضاً.

ردت اليسون :

« مرحباً يا جوني ».

قالت الأم :

« جوني سيقوم بعمل ديكورات الكوخ. وقررت أن نناقش الموضوع في البيت. وغداً سيحضر ورق الجدران والطلاء من اينفرنيس ».

« وفي الأسبوع المقبل سأبدأ العمل في البيت مع الأخوة كاميرون. الآن حصلت على جميع المقاييس اللازمة، وما عليكما الا الاختيار حسب ذوقكما من النماذج التي تركتها لكما ».

سألته السيدة ماكاي :

« ما رأيك في تناول فنجان من الشاي معنا؟ »

أجاب مبتسماً :

« هذا لطف منك يا سيدة ماكاي ».

لمحت اليسون في عينيه شرارة خاصة جعلتها ترتعش وترتجف. قالت الأم :

« هيا بنا من هنا. أعتقد أن هذا الكوخ العتيق سيبدو أجمل بكثير بعد انهاء الديكورات اللازمة ».

سار الثلاثة باتجاه البيت. وطيلة الوقت كانت اليسون تفكر بالاختيار الغريب الذي قام به نيال.

استغربت كيف أن نيال عرف أن جوني أصبح صاحب محل خاص

لبيع الطلاء وورق الجدران وأيضاً تنفيذ التزامات معمارية متنوعة. فجوني افتتح المحل في فترة غياب نيال، ومن غير المعقول أن تكون أخبار عمله قد وصلت اليه عبر البحار. والأقرب الى الاحتمال أن يكون نيال قد سأل المحامي عن شخص مناسب، فدّله هذا الأخير على جوني. وشعرت اليسون بالخوف لكل هذه المصادفات المتسارعة. وظلت هذه المشاعر تضج في رأسها حتى بعد أن ذهبت الى فراشها تلك الليلة، بحيث لم يزرها النوم إلاّ لماماً. كان وجه ابن نيال يلح عليها ويحتل أفكارها طيلة الوقت. كم تتمنى أن تساعده؟ لكنها تعلم أن ذلك محكوم بالساعات القليلة التي يمضيها في المدرسة. وبالفعل، استغلت كل دقيقة منها ومع مرور الوقت لاحظت استجابة منه، وانفتاحاً لتقبل عطفها ومحبتها. إنها تريد النجاح في مهمتها، وتريد أن تراه صبياً طبيعياً وسعيداً.

نهار الأربعاء، رافق نيال ابنه الى المدرسة بعد فسحة الغداء. في هذه الأثناء كانت اليسون قد عادت مبكرة وراحت تراجع بعض الدروس. دخل الاثنان الى القاعة، فوقفت اليسون لاستقبالهما. وما ان فعلت حتى انتزع أندريه يده من يد أبيه وأسرع نحوها مبتسماً.

« أهلاً يا أندريه ».

أخذت اليسون يد الصغير بحنان، ثم الفتت الى نيال متسائلة :

« هل هناك شيء ما يا سيد ماكبين؟ ».

الغريب في الأمر أن هدنة غير معلنة كانت تقوم بين الاثنين ما دام أندريه موجوداً، وكأنهما متفقان على التعامل بحذر أمامه.

هزّ رأسه مبتسماً وقال :

« لا. لكنني جئت أطلب خدمة. هل يمكنك أن ترافقي أندريه الى البيت عند الساعة الرابعة؟ اذ علي الذهاب الى المحامي مع أمك. كنت في بيتكم اليوم، وقد تعهدت جسي برعايته حتى عودتنا ».

أجابت اليسون بحماسة لم تكن راغبة باظهارها :

« سأكون على أتم الاستعداد للاهتمام به ».

خيّم صمت كثيف للحظات، قبل أن يقول :

« أنا آسف، لم أقصد هذا. فقد تصورت أن تكوني مشغولة بعد

المدرسة! »

هزها اعتذاره بشدة، اذ لم تكن تعتقد أنه قادر على التعامل الانساني مع الآخرين. قالت له بحدة لاعتقادها بأنه يشير الى رفضه السماح لابنه باللعب بعد المدرسة :

« في العادة أنا مشغولة. لكن أندريه هادىء ولا يثير المتاعب - ثم التفتت الى الصغير وهي تداعب رأسه - هل تحب أن ترافقني الى البيت وتتعرّف على الكلب راستي؟ »

ابتسم الصغير دون أن يجيب. فقد كان من عادته أن لا يجيب على الاسئلة في أحيان كثيرة. وأدركت اليسون أن أندريه يفهم كلام الآخرين لكنه لا يبذل جهداً للرد عليهم، وقررت في الوقت الحالي على الأقل أن تترك الأمور على علاّتها ما دامَا متفاهمين ويحققان تقدماً في علاقتهما.

نظرت الى الأب مجدداً وقالت :

« الأمور مرتبة اذن، وسنهتم به الى حين عودتك. واذا لم يكن لديك مانع فنحن نتناول عشاء خفيفاً عند الساعة الرابعة والنصف. ويمكن أن تقدم جسي الشاي أيضاً ».

شكرها نيال والتفت الى ابنه قائلاً :

« هل سمعت يا أندريه؟ كن ولداً عاقلاً. سأرجع لآخذك من بيت الآنسة ماكاي عندما أنتهي من عملي، فوداعاً ».

بعد مغادرته القاعة، قالت اليسون للصغير :

« سوف نلهو في البيت، اليس كذلك؟ »

وكعادته التي أصبحت اليسون تعرفها جيداً، فكر أندريه في السؤال وكأنه يقلبه من جميع أوجهه قبل أن يقرر الاجابة قائلاً :

« لست أدري اذا ما كنت سأحب الكلاب ».

ارتاحت اليسون لجوابه، وقالت :

« حسناً، سنرى عند المساء. واؤكد لك أن راستي كلب طيب ويحب الأطفال الصغار كثيراً! »

فكر أندريه في كلام اليسون لعدة ثوان، ثم هز رأسه دون أن يتكلم. وبعد لحظات تركها ليأخذ مقعده في القاعة. وسرعان ما علت الضوضاء

والضحكات في الخارج، عندما بدأ الأطفال يتوافدون الى الصف بعد الظهر.

تجولت اليسون مع أندريه في مختلف أرجاء البيت. وعندما وصلا الى العلية قالت :

« هناك حصان خشبي في العلية، فهل تريد أن تراه؟ ».

نظر اليها مبتسماً دلالة على الموافقة. ثم صعدا معاً السلم الطويل المؤدي الى العلية.

راقبت اليسون وجه أندريه وقد علت الدهشة والاستغراب وجهه، عندما شاهد الحصان الخشبي الضخم المغطى بغبار كثيف. سألها بعد صمت دام لحظات :

« هل أستطيع أن المسه؟ »

ردت عليه قائلة :

« طبعاً. اسم الحصان بيغاسوس . . وباستطاعتك ركوب صهوته أيضاً ».

وقف أندريه الى جانب بيغاسوس يتأمله بدهشة طفولية واضحة، ثم مدّ يده بهدوء وراح يداعب الشعر الصناعي الكثيف المنسدل على ظهر الحصان. . . فاهتز الحصان بفعل لمسات أندريه الذي استدار متسائلاً ناحية اليسون.

اقتربت اليسون منه وحركت الحصان بقوة قائلة :

« لا بأس في ذلك. أنظر، إنه يتحرك بسرعة الى الأمام والى الخلف ».

وبلمح البصر امتطت اليسون صهوة الحصان وراحت تحركه بسرعة، في حين كان اندريه مستغرقاً في الضحك وقد افترّت شفتاه عن أسنان ناصعة البياض :

« انه حصان جيد. هل أستطيع . . . »

ترجلت اليسون وقالت :

« هيا جرب. سأسندك بنفسي ».

رفعته الى صهوة الحصان بهدوء، ثم ركزت قدميه وأعطته اللجام الجلدي. وعندما تأكدت من استقراره، أخذت تحرك الحصان بلطف

شديد. عند أول حركة أحست بيده تتمسك بذراعها بشدة وقد تشنج جسده من الخوف. لكن مع مضي الوقت ارتاح في مكانه وأفلت يدها نهائياً، مركزاً على حركة الحصان المتسارعة. استمتع أندريه بهذه اللعبة بحيث نسي كل شيء حوله الاّ الحصان، مستغرقاً في الضحك والقهقهة بارتياح شديد. إنه الآن ولد يختلف تماماً عن الولد الحزين المنطوي على نفسه الذي بدأ الدراسة قبل أيام. وفكرت اليسون أن الحصان يجب أن يصبح ملكه، وبهذه الطريقة على الأقل تتخلص أمها من قطعة غير مرغوب فيها في الكوخ الصغير.

فجأة، سمعت حركة خفيفة على الباب جعلتها تلتفت، فرأت نيال ماكيين واقفاً يراقب المشهد.

قال لها :

« لم أقصد أن أخيفك، كنت فقط أراقب اندريه على صهوة الحصان ».

شعرت بالارتباك وكأنه شاهدها بالجرم المشهود سألته :

« هل أنت هنا منذ وقت طويل؟ »

« دقيقة أو دقيقتين فقط. لم أرد أن ازعجكما ».

أزاحت اليسون عينيها عن نيال، وتشاغلت بالتطلّع الى ساعتها قائلة :

« الأفضل أن نذهب الآن، فلا شك أن جسي قد أعدت السندويشات لاندريه ».

قال نيال دون أن يبعد عينيه عنها :

« أجل، وقد أرسلتني للبحث عنكما ».

استدارت اليسون وانزلت اندريه عن الحصان قائلة :

« هيا بنا، هل استمتعت بذلك؟ »

نظر اليها بعينين لامعتين وقال :

« لقد أحببت الحصان كثيراً! »

« اذا سمح لك والدك بالحصول على الحصان، فانه هدية لك ».

نظرت اليسون الى نيال وقد أدركت انه كان عليها طرح الموضوع في غياب اندريه.

قطع نيال حبل افكارها قائلا :

« هل أنت متأكدة؟ فالحصان للعائلة منذ سنوات طويلة ».

أجابته فوراً :

« تمام التأكيد. على كل ليس للحصان مكان في الكوخ. وأتمنى صادقة أن يأخذه اندريه ».

نظرت اليسون الى الطفل بحنان، فهالها أن تجد في عينيه بعض الدموع. وبحركة غريزية رفع يديه نحوها فانحنت اليه وعانقته بمحبة. ومع أنه كان ضعيف البنية الاّ أن يديه تشبثتا بعنقها بقوة غريبة. . . وهو يهمس في أذنها :

« أنت سيدة رائعة. وأنا أتمنى الحصول عليه ».

وكأنه تذكر أن أباه موجود، لذلك التفت اليه قائلا :

« أبي هل يمكن أن اقبله؟ »

« أجل يا اندريه. عليك أن تشكر الآنسة ماكاي ».

« أشكرك كثيراً يا آنسة ماكاي ».

« لا ضرورة لذلك! »

سارت باتجاه الباب، واندريه ما زال بين ذراعيها. حاولت في طريقها أن تتجاوز عشرات الكتب والمجلات المتناثرة دون انتظام، ووجدت صعوبة في ذلك لأن اندريه كان يحجب عنها الرؤية السليمة. ولذلك عندما داست على أحد الكتب الضخمة اختل توازنها وكادت تسقط الاّ أن نيال كان أسرع اليها، ممسكاً اندريه باليد اليمنى ومحيطاً خصر اليسون باليد الأخرى. استغرقت العملية كلها عدة ثوان فقط، استعادت اليسون توازنها بعدها وسلمت أندريه الى والده الذي أنزله الى الأرض بسلام.

لم تستطع اليسون أن تحدّد بكلمات واضحة طبيعة الذي حدث، لكن شيئاً ما تغير في هذه اللحظات. فقد كان الجو مشحوناً بتوتر كثيف ينذر بعواقب غير مستحبة في أية لحظة. لذلك شكرته باقتضاب وأسرعت الى الخارج. وما هي الاّ لحظات حتى كانت تنزل السلم برفقة اندريه وكأن شيئاً لم يكن. اذ لأول مرة في حياتها تشعر بقرب رجل الى هذا الحد. صحيح أنها متعبة وقلقة وغاضبة، لكن الصحيح أيضاً أنها تمنت أن يظل اندريه ممسكاً بها الى الأبد. حاولت اليسون استبعاد الأفكار

السخيفة. وفكرت أن صديقتها ميغ ستضحك كثيراً عندما تعرف التفاصيل، وراحت تتصور التحليل النفسي الساخر الذي ستفسر على ضوئه مشاعر اليسون. وابتسمت اليسون بصمت قائلة لنفسها : « القصة كلها سخيفة... فنحن نكره بعضنا كثيراً ».

انتهى كل شيء وأصبح البيت قانونياً ملكاً لنيال ماكبين. بدأ غوردن العمل في اعداد ديكورات الكوخ، في حين كانت كل معدات البناء اللازمة لتحويل البيت الى فندق جاهزة بانتظار انتقال عائلة ماكاي الى سكنهم الجديد. هناك الكثير من العمل، لكن بمجرد الانتهاء منه سيغص المكان بالغرباء من كل حدب وصوب. قد يستغرق الأمر عدة أشهر، وفي هذه المرحلة على اليسون أن تتأقلم مع الواقع الجديد. ولأول مرة تشعر اليسون بالراحة لاختيارها مهنة التدريس، فالانشغال بالتلاميذ ومشاكلهم وفروضهم المدرسية لا يترك لها فرصة كبيرة للتفكير في شجون البيت. وبالاضافة الى ذلك فهناك اندريه، الذي استطاع أن يتسلل الى قلبها ويحتل مكاناً بارزاً فيه. وراقبته اليسون وهو يقوى يوماً بعد يوم، ويزداد استقلالاً واعتماداً على نفسه فقد كان ذكياً ومرهف الشعور ويدرك فوراً ما هو المطلوب منه. انها تحبه بكل جوارحها، لكنها كانت مضطرة الى اخفاء ذلك... فهي لا تستطيع أن تنسى ابن من هو!

أصبحت لقاءاتها مع أمها متباعدة، فالسيدة ماكاي مشغولة هذه الأيام بالرسم والتخطيط واعداد الديكورات اللازمة للفندق. واعترفت لجسي في أحد الأيام أن أمها قد تغيرت كثيراً بعدما صارت حياتها ذات معنى عملي. وأكدت لها أن الرسوم التي أعدتها في هذه الفترة تعتبر من أجمل ما ابدعته يداها. فقد حولت القاعة القديمة ـ على الورق حتى الآن ـ الى صالة استقبال حديثة يتمناها أي فندق فخم. وعندما تمعنت اليسون في الرسومات، أحست عمق الحب الذي يحرك أمها في عملها... والحقيقة أن أي انسان غريب ما كان يستطيع مجاراتها مهما بذل من جهد.

كانت اليسون وجسي تتناولان الشاي بعد ظهر يوم الجمعة في المطبخ الذي يغص بفوضى شاملة تمهيداً للانتقال بعد أسبوع واحد فقط. نقلت اليسون نظرها في المكان، ثم قالت :

« آه يا جسي، سوف يضع اداوات مطبخية جديدة هنا وسيتغير الحوض أيضاً. لن يظل البيت كما كان في السابق ».

وافقت جسي قائلة :

« هذا صحيح... وأنا لا أمانع في العمل معه في المطبخ! »

صرخت اليسون :

« جسي؟ »

انفجرت العجوز ضاحكة وهي ترى دهشة اليسون، ثم قالت :

« حسناً، ان أمك تعمل معه الآن. وأعتقد أنه سيجد عملاً آخر لها عندما ينتهي ديكور الفندق... وفي كل حال، الفندق يحتاج الى موظفين عديدين ».

« هل تقبلين العمل معه... هنا؟ »

« نعم، لكن لبعض الوقت فقط. فأنا لن أتخلى عنك وعن أمك... لأنكما عائلتي. ومع ذلك يجب الاعتراف بأن العمل معه ممتع ومفيد ».

سألتها اليسون بتحدّ :

« كيف تعرفين ذلك؟ »

هزّت جسي رأسها وقالت :

« أنا أعرف. لقد قضيت من العمر شوطاً بعيداً بحيث أستطيع الحكم على الناس. ان نيال ماكبين رجل شريف وصادق... وليكن ذلك بعلمك ».

نظرت اليسون الى جسي باستغراب قائلة :

« انك تدهشينني برأيك هذا ».

« ربما! لكنني أقول الحقيقة. ألا ترين بنفسك المواصفات الجيدة التي يحملها؟ ».

قالت اليسون :

« أجل... وكلّما قلّ تعاملي معه، كلّما كان أفضل بالنسبة إلي ».

سألتها جسي بلطف بالغ :

« وماذا عن ابنه؟ ».

أعترضت اليسون بشدة :

« ليس من العدل المقارنة. اندريه مجرد طفل. وحسب ما أراه فهو لا

يشبه والده مطلقاً، ما عدا مظهره الخارجي. ونشكر الله أن اندريه ليس كما كان أبوه وهو طفل ».

وجهت جسي نظرة صارمة الى اليسون، ثم ابتسمت وهي تقول :

« هذه هي الحقيقة ».

أدركت جسي فجأة أنها تضيّع وقتها في نقاش لا جدوى منه مع اليسون، لذلك عادت الى افراغ الادراج قائلة :

« الأفضل أن نعمل بسرعة ».

قالت اليسون وهي تقف :

« وأنا سأذهب الى غرفتي لحزم أشيائي. آه يا جسي، هل تعتقدين بأننا سنكون مرتاحين في الكوخ؟ ».

ضحكت جسي :

« طبعاً سنرتاح. سيكون أصغر وأكثر حميمية... على الأقل لن نكون وحيدين في الشتاء ».

ابتسمت اليسون :

« أتمنى أن تكوني على صواب. بالاضافة الى ذلك فان الفندق سيكون خالياً من النزلاء في الشتاء، الحقيقة أنني لا أتوقع عدداً كبيراً فيه حتى في الصيف... لكن نيال يبدو واثقاً مما يفعل ».

وهنا لمحت اليسون على وجه جسي تعبيراً غريباً، سرعان ما زال بلمح البصر. لكن اليسون الحّت في السؤال :

« جسي ماذا في الأمر؟ »

هزّت مدبرة البيت رأسها قائلة :

« لا شيء... لا شيء أبداً ».

« بل هناك الكثير. اذ ما ان أشرت الى الضيوف حتى تصرفت وكأنك تعرفين شيئاً ».

« حسناً، كل ما هنالك أنني سمعت بعض الشائعات الغريبة ».

واستدارت جسي متشاغلة في أغراض المطبخ الكثيرة. لكن اليسون الحت أكثر :

« شائعات حول ماذا يا جسي؟ ».

نظرت جسي اليها وقالت :

« لن أخبرك بها لأنها قد تكون كاذبة. وأنا لا أريد أن أكون سبباً في اثارة الاضطرابات. انا آسفة يا اليسون، لكنني لا أستطيع ».

وأصرّت جسي على رفض الكلام حول الموضوع. في اليوم التالي اكتشفت اليسون بنفسها ما رفضت جسي البوح به. كانت في مكتب البريد لشراء بعض الحاجات عندما دخلت امرأة اخرى الى المكتب، هي اليس قريبة الأختين دوريس وديزي، التي تعيش في منطقة غير بعيدة وتأتي بين الحين والآخر لزيارة قريبتها.

سلمت اليس على اليسون قائلة :

« ألست معلمة المدرسة؟ »

ردّت اليسون السلام بأحسن ما تستطيع محاولة تجنّب هذه المرأة التي تثرثر اكثر من ديزي ودوريس. ولكن اليس واصلت كلامها قائلة :

« من المؤسف أن تغادروا البيت الكبير بعد كل هذه السنين. سمعت انه سيتحول الى فندق، فهل هذا صحيح؟ »

أجابت اليسون باقتضاب شديد :

« نعم ». ثم التفتت الى السيدة فينليسون قائلة :

« هل جهزت اغراضي يا سيدة فينليسون؟ ».

تابعت اليس الحديث :

« لا شك أن ذلك الشاب يعرف ماذا يريد لقد قلت لدوريس وديزي قبل قليل انه سيذهب بعيداً يعيداً جداً، وسيحقق ثروة طائلة بعد أن يشق الطريق الجديد. تصوري، هذا المكان العتيق سيتحول خلال سنوات الى ما يشبه افيامور».

اضطرت اليسون للأستناد على الطاولة خوفاً من السقوط أرضاً بفعل الصدمة التي كانت قوية بحيث شعرت أن الدم تجمد في عروقها... وسمعت صوت السيدة فينليسون وكأنه آت من البعيد :

« ماذا بك؟ هل أحضر لك كأساً من الماء؟ ».

أحست بشفتيها جافتين يابستين فأقبلت على كأس الماء تشربها بلهفة. ووسط هذا التوتر الشديد كانت اليسون تدرك أن عليها عدم اظهار مشاعرها، والا انتشر النبأ بسرعة الصوت في القرية كلها. اغتصبت ابتسامة صفراء وقالت :

« شكراً لك. لقد أحسست بدوخة مفاجئة، أعتقد أنها ناتجة عن نوع من الحساسية ».

ثم نظرت الى اليس وقالت :

« كنت تتحدثين عن الطريق الجديد؟ لا شك أنه سيحدث تغييراً ملحوظاً. ولا اعتقد أن الكثيرين يعرفون عنه شيئاً حتى الآن ».

ابتسمت اليس بخبث قائلة :

« من المفروض أن يكون سراً، لكن أخي يعمل في البلدية وقد حصل على التفاصيل من هناك ».

وأخيراً قررت السيدة فينليسون التدخل بعد أن كانت صامتة طيلة الوقت :

« أعتقد أن نيال ماكيين عرف التفاصيل من عمه الأكبر الذي يعمل في مشروعا الطرقات الرئيسية في ايفرنيس ».

ثم التفتت الى اليسون قائلة :

« كان عليكم التمسك بالبيت اكثر، اذ يبدو أنه اصبح مركز كل الحركة في القرية. ونحن مقبلون قريباً على نشاط ملحوظ في كل المجالات ».

وفي النهاية استطاعت اليسون الهرب من مكتب البريد وعندما وصلت الى مكان منعزل أخذت ناحية مخفية ووضعت حاجاتها أرضاً. كانت ترتجف اضطراباً وغضباً... اضطراباً لأنها فوجئت بالأنباء من مصادر مختلفة، وغضباً من الرجل الذي سرق عملياً البيت منهم. فهو قد عرف أن طريقاً جديداً سيشق ومنتجعات سياحية ستقام، وهذا بالتالي سيضاعف سعر البيت في غضون أسابيع من اعلان الانباء... لكنه استبق الجميع واشتراه بسعر بخس.

فكرت بمرارة أن نيال كان ذكياً... وذكياً جداً. لا شك أنه كان يضحك في سره كلّما اجتمع وأمها الى المحامي. وما عرضه العمل على السيدة ماكاي إلّا لابقائها صامتة. وجسي التي سمعت الشائعات لم تفه بكلمة لأنها عاجزة عن التأثير في شيء. وأحست اليسون بالألم الشديد لهذه الخيانة المستترة... وفكرت أنه حقق الانتقام الذي ينشده، واكثر.

كم كانت مخطئة عندما اعتقدت قبل أيام، عندما كانت مع أندريه في العلية، أنها عرفت جانباً آخر من شخصية نيال. فهو لم يتغير ابداً.

والسنوات لم تزده الّا قسوة واحتيالاً. وما ان انحنت لالتقاط حوائجها مجدداً حتى سمعت صوته من الخلف قائلا :

« سأحملها عنك »

انتفضت اليسون بفعل المفاجأة، والتفتت لتجد نيال مقبلاً نحوها.

٥- ارجوحة الحب

انتظرت اليسون حتى اقترب منها نيال، وهي تراقبه بعينين يطفح منهما الحقد والاشمئزاز، وقد ظهرت على وجهها علامات الحزن العميق.

سألها بدهشة حقيقية وهو يهم بحمل الأشياء :

« ماذا بك؟ ماذا حدث؟ »

لم تجب، بل عمدت الى انتزاع الحاجات من يده بشراسة. فنظر اليها مجدداً دون أن تتغير تعابير وجهه وقال :

«حسناً. يبدو وكأنك تريدين ضربي. هيا أخبريني بالذي حدث».

التقت عيناه بعينيها بتحد، فأدركت اليسون أن ساعة المواجهة قد حانت قالت :

« سمعت الآن أن هناك طريقاً جديداً سيشق في القرية ويربطها بالجنوب مما سيؤدي الى زيادة السياح الذين سيقصدون مركز التزلج المخطط له منذ مدة ».

ظل صوته هادئاً وهو يقول :

« وماذا يعني ذلك؟ »

وجاهدت اليسون كي تبقي صوتها منخفضا :

« هل كنت تعرف بالمشروع من قبل؟ »

ابتسم نيال بلطف ولا مبالاة في حين كان صدر اليسون يغلي غيظاً وكراهية. قال لها :

« اذن، هذا كل ما في الأمر! »

ارتفعت حدّة صوت اليسون وهي تقول :

« هل كنت تعرف أم لا؟ »

« ربما! ».

« اذن، أنت سرقت البيت منا. عرفت بالمشروع، ومع ذلك تركت أمي تبيع البيت بسعر بخس... انك...».

وتهدج صوت اليسون بالتوتر قبل أن تتمالك نفسها وتضيف :

« انك مجرد لص حقير! »

تقلّصت عضلات وجه نيال واحتقنت عيناه بالغضب الشديد... الاّ أنه ظل محافظاً على صوته المنخفض :

« لو كنت مكانك، لما استعملت هذه الكلمات القاسية ».

ردّت بعصبية ظاهرة :

«ولماذا لا؟ لا يوجد أحد يشهد ضدي. وسأقول ما يحلو لي. أنت مخادع لقد راهنت على جهل أمي بتفاصيل المشروع... وربحت. لم تكن تعرف، ولذلك حصلت على البيت بأبخس الأسعار. فهل أنت فخور بما فعلت؟».

« هكذا تعتقدين اذن؟ كل شيء بالنسبة إليك أبيض أو أسود ولا شيء بينهما. اشتريت البيت، وكنت اعرف تفاصيل المشروع... فأنا اذن لص مخادع، لم يعد أمامك الاّ أن تصفيني بالكذب ».

استدارت تريد الابتعاد عنه، الاّ أن يده تمسكت بها وجذبتها في مكانها. جذبها نيال نحوه قائلاً :

« اياك أن تديري ظهرك عندما أتكلم معك. تذكري أنك بدأت المشكلة! وعليك أن تتعلمي عدم الهرب في منتصف المعركة والاّ كانت الخسارة من نصيبك ».

« دعني اذهب ».

حاولت اليسون بشدة أن تتملص من قبضته الحديدية، لكن من دون جدوى. قالت وصدرها يخفق بسرعة ملحوظة :

« لا فائدة من الكلام معك. في كل حال، لقد أصبح البيت ملكك... وانتهى الأمر ».

قال :

« لكنني لم أنته معك بعد. يبدو أنك تعتقدين أن بامكانك اطلاق الاتهامات كيفما يحلو لك وساعة تريدين... فقط لأنك اليسون ماكاي.

اطردي هذه الأفكار نهائياً من رأسك. فأنا لا أقبل أن يصفني أحد بالنعوت التي اطلقتها. وللعلم فقط، فأنا لا أكذب أبداً. لم أفعل هذا عندما كنت صغيراً، ولا أنوي أن ابدأ اليوم. لقد دفعت سعراً مناسباً ثمناً لبيتكم، واذا كنت لا تصدقين، فعليك أن تسألي أمك! »

أحست اليسون في نبرات صوته شيئاً جعلها تخفف من محاولاتها للتملص من قبضته. فهو لم ينف معرفته بالمشروع، لكن التأكيدات التي أطلقها حيّرتها كثيراً... خاصة ان وجهه لم يظهر أية اشارة ندم. وفجأة استرجعت اليسون ذكريات كلمات طفولية القيت في ساعة غضب في احدى المعارك بين نيال واليك وكانت اليسون هي الشاهدة عليها... كلمات نسيها الجميع الا هي.

قالت :

« قلت قبل قليل إنك لم تكذب في حياتك أبداً. اذن فما قلته عندما كان عمرك احدى عشرة سنة صحيح مئة في المئة ».

« ماذا قلت؟ »

حتى الآن لم تتغير نبرة صوت نيال، وهذا ما زاد من خوف اليسون وتوترها. لكنها مضطرة لمواصلة المعركة من أجل كشف كل الحقيقة مهما كلّف الأمر. لذلك واصلت كلامها بعد أن رطبت بلسانها شفتيها الجافتين :

« قلت لأليك بعد تلك المعركة ان بيتنا هو في الحقيقة بيتكم، وان عائلتكم يجب أن تكون فيه بدلاً من عائلتنا ».

اطبقت اليسون عينيها بتعب، ثم التفتت الى قبضة يده على ذراعها وقالت :

« اترك يدي ».

اطلق نيال سراحها دون تردد. وفجأة لمحت اليسون على وجهه تعبيراً حزيناً سرعان ما زال تاركاً خلفه نظرة قاسية متصلبة :

« لديك ذاكرة أقوى بكثير مما تصورت ».

« ماذا قصدت بكلامك في ذلك الوقت؟ »

أجابها ببطء :

« المسألة غير مهمة الآن ».

« بل هي مهمة جداً. فاذا كنت كما تدّعي صادقاً، فما قلته آنذاك يمثل الحقيقة من وجهة نظرك. لذلك أريد أن أعرف ماذا قصدت؟ ».

« قلت لك أن تنسي المسألة كلها. انتهى الأمر وأصبح البيت ملكي الآن؟ ».

ولأول مرة أحست اليسون بحدة صوته تعلو وتصبح أكثر قسوة، فادركت على الفور أنها لمست عصباً حساساً في شخصيته لذلك واصلت الكلام قاصدة ايذاءه قدر الامكان :

« لم يبق أمامي اذن إلاّ التخمين بأننا سرقنا البيت من عائلة ماكين في الماضي البعيد... ربما قبل بدء النزاع؟ هل هذه هي الحقيقة؟ أخبرني؟ »

كان صوتها حاداً واستفزازياً. فهي تدرك أن هناك شيئاً أعمق من النزاع المعلن بين العائلتين، ولذلك تريد معرفة الخلفيات كلها. وما ان استدار نيال محاولاً مغادرة المكان حتى حان دور اليسون لايقافه صارخة :

« هيا أخبرني ».

لم تر اليسون وجه نيال الا لثوان معدودة، اذ سرعان ما وجدت نفسها بين ذراعيه في عناق قاس مفاجيء. شلتها المفاجأة، ولكنها استعادت ادراكها وأبعدته عنها بحدة، صارخة في وجهه :

« كيف تجرؤ على ذلك؟ »

حدث الأمر نفسه قبل تسع سنوات في المنطقة ذاتها تقريباً... طبعاً مع تغيّر كبير... فقبل تسع سنوات كان نيال شاباً مراهقاً، أما الآن فهو رجل ناضج عجنته التجارب الكثيرة التي عرفها في العالم الخارجي.

قال لها :

« هذا هو الجواب الوحيد الذي ستحصلين عليه مني. فما عندك تقولينه الآن ».

كان صوته قد فقد هدوءه، وباتت الكلمات تخرج مسرعة من فمه. وفجأة لاحظت اليسون أن العناق ترك تأثيراً عليه أكثر مما تصورت. فقد كانت عيناه معتمتين وغائمتين في ذلك الصمت المتوتر الذي خيم عليهما.

قالت في محاولة لكسر جدار الصمت الذي زاد من حدّة توترها :

« اذا كانت هذه هي طريقتك في الرد على الاسئلة فلا شك أن حياتك صعبة للغاية. ومع ذلك أحذّرك من اعادة الكرة مرة أخرى، والا فانك

ستندم ».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على طرف فمه وهو يقول :

« تهديدات؟ أنا أردّ على كل تهديد بما يناسبه. شخصياً، أنا لا أؤمن بالتحديات فقط. . . وعليك أن تتذكري ذلك دائماً يا آنسة ماكاي ».

حوّل عينيه الى الحاجات المرمية على الأرض، ثم حملها وسلمها الى اليسون قائلاً :

« وأنا لا أعرض مساعدتي أكثر من مرة ».

تركها واقفة في مكانها وواصل سيره نحو البيت دون أن يلتفت اليها. وظلّت اليسون دون حراك وقد ادركت أنها خسرت أيضاً معركة اخرى.

واخيراً بدأ العمل في البيت. وقررت عائلة اليسون الانتقال الى الكوخ يوم الاربعاء، أي بعد يوم واحد من انتهاء ديكوراته. وعندما عادت اليسون من المدرسة بعد ظهر يوم الثلاثاء، أدهشتها الجدران البيضاء وسط الحدائق الخضراء الداكنة. وفي الداخل، كانت رائحة الطلاء الحديث تعبق في كل مكان وقد بدت لمسات جوني الفنية في الغرف كلها. ابتسمت اليسون بسرور، واستغربت كيف أنها فكرت بما سيكون عليه رد فعل الكلب راستي في بيته الجديد. ولذلك قررت أن تضع سلته في غرفتها على الأقل في الفترة الاولى.

سمعت اليسون صوت رجل من مكان قريب، فتوترت أعصابها على الفور خوفاً من أن يكون القادم هو نيال الذي لم تره منذ السبت الماضي. فهي غير راغبة في رؤيته، وقد زاد في اشمئزازها منه كونه قد دفع تكاليف عمل الديكورات للكوخ. أما الأم فكانت مسرورة جداً وتمنت لو تشعر ابنتها بالمشاعر نفسها. فكرت اليسون أن أمها غير قادرة على فهم دوافع نيال كما تفهمها هي. وحتى عندما حدّثت أمها عن الطريق الجديد. ردّت عليها مؤكدة أن كل تصرفات نيال كانت صادقة وواضحة. وأضافت السيدة ماكاي تقول ان الطريق غير مؤكد بعد، ومن الخطأ المراهنة على انجازه في القريب العاجل. وأشارت ساخرة الى أن الجميع يعرفون أن المشاريع تظل لسنوات حبراً على ورق قبل أن تجد طريقها الى التنفيذ. واضطرت اليسون في النهاية الى الاستسلام لمنطق أمها مع أنها لا تقبله.

التفتت اليسون لتجد جوني غوردن يقترب منها، فشعرت بارتياح عميق

وقالت له على الفور :

« كنت اتأمل عملك الجميل. لقد قمت بأكثر مما يجب خاصة هناك ».

وأشارت بيدها الى ناحية المطبخ حيث حلّت الادراج والمعدات البيضاء الحديثة تنتظر انتقالهم الراهن. ابتسم جوني ونظر اليها باهتمام، مما جعلها ترتبك خجلاً. فهي تستطيع ملاحظة نظرات الاعجاب في عيون الرجال. ولكنها لم تعد مراهقة صغيرة تؤثر فيها المواقف المفاجئة.

خاطبها بهدوء دون أن ينقل عينيه عنها :

« انه عمل لا بأس به ».

ادركت اليسون وهي تراقبه أنها اخطأت عندما اعتقدت أنه تغيّر. لا، فما زال الذئب نائماً بداخله. ولذلك عليها أن تراقبه بحذر. . . فهو رجل الآن ولم يعد ذلك الطفل الطري العود.

« هل ستتنقلون غداً يا اليسون؟ ».

« أجل. . . هذا اذا استطعت أن اتغيّب عن المدرسة غداً. لكن الأمر يبدو مستحيلاً لعدم وجود معلمة بديلة في المنطقة ».

« حسناً. أنا والأخوان كاميرون سنكون هنا، وسنقوم بنقل كل الاغراض التي تريدها أمك. أما الاثاث الباقي في البيت الكبير فسيحفظ في احدى الغرف التي لم يجر فيها أي تعديل ».

عضت اليسون على شفتها عندما ذكر جوني موضوع الاثاث. فقد تذكرت كيف أنها غصت بالبكاء عندما أخبرتها أمها أن نيال يرغب في شراء الاثاث القديم. لعل هذا الحل يبدو بالنسبة الى السيدة ماكاي أفضل من بيع الأغراض في مزاد علني. فالأثاث مصنوع من الخشب المصقول الغالي الثمن، ومن غير المناسب أن تذهب كل قطعة منه الى مكان مختلف. ولكن هذا لن يحدث، وسيذهب معظم الاثاث الى غرفة مغلقة حتى اشعار آخر.

قالت اليسون مبتسمة :

« اذن، سأعود من المدرسة وأجد كل شيء منتهياً ».

لكن ابتسامتها لم تخدع جوني، الذي نظر اليها بحدة قائلاً :

« هذا صحيح. لا شك أنك ستجدين صعوبة في العيش في الكوخ بدلاً من البيت الكبير؟ »

تشاغلت اليسون بالتمعن في الخزائن وهي تقول :

« ستتعود على الواقع الجديد. كما ان جسي ستجد الحياة هنا أسهل... على الأقل في المطبخ ».

هزّ رأسه موافقاً، ثم نظر الى ساعته وقال :

« هكذا اذن. الأفضل أن اذهب الآن، فعندنا عمل كثير غداً صباحاً. فكلما أسرعنا في نقل الحوائج أنجزنا العمل في وقت مبكر ».

أستدار جوني عندما سألته اليسون فجأة :

«كيف حدث أن اختارك نيال ماكين لاعداد الديكورات اللازمة؟».

« السيد ستيوارت هو الذي رتب كل شيء. الم تعرفي ذلك من قبل؟ »

أجابته بمرارة اتضحت من خلال صوتها المتهدج :

« لم أعرف إلاّ القليل عن مشاريع السيد ستيوارت والسيد ماكين... ».

حدّق جوني مجدداً باليسون قائلاً :

« اذن هذه هي القصة ».

« أية قصة؟ ».

قال :

« انت تعرفين كيف تنتشر الشائعات في القرية. فالنزاع بين العائلتين لم يبتعد عن اذهان الناس الذين يمتلكون ذاكرة جيدة كما تعرفين ».

« لقد عشت في هذه المنطقة طيلة حياتي، وأعرف جيداً طبيعة الناس يا جوني ».

« يقولون انه تغير. ويقولون انه يحقق دائماً ما يصمم على تحقيقه ».

اذن ليست اليسون وحدها التي ترى هذا التغيير. سألته بهدوء :

« وأنت ماذا تقول؟ ».

أجاب بهدوء :

« أعتقد انهم محقون في اقوالهم. ويمكنني التأكيد أن العمل معه على أحسن ما يرام، وليس هناك مجال لاضاعة الوقت. فهو يحدد الامور المطلوبة، ويريدها أن تتحقق على أكمل وجه. انه يدفع جيداً، ولا شك أنه سيحصل على عمل متقن من جميع العاملين ».

قالت وهي تتوجه الى الباب :

« أنا متأكدة من ذلك. بالمناسبة هل ترغب في كوب من الشاي قبل ذهابك؟ ».

ابتسم فجأة وقال :

« كنت أتمنى أن تطلبي مني البقاء ».

سارا جنباً الى جنب عائدين الى البيت وسط الأشجار الكثيفة التي تفصل الكوخ عن بقية المكان. وكانت اليسون غارقة في أفكارها بحيث لم تدر الى أين تقودها قدماها، الى أن علقت بعض الاغصان اليابسة في شعرها المتناثر فاضطرت للتوقف فجأة.

توقف جوني أيضاً واستدار ليساعدها على التخلص من الأغصان العالقة. قال بدهشة واضحة :

« عليك الانتباه الى أين تقودك قدماك! انتبهي هناك العديد من الاشواك التي ستظل في شعرك الى أن تغسليه ».

أحست اليسون أن جوني يتعمد اطالة الوقت لابقاء يديه في شعرها لذلك ابتعدت عنه ضاحكة وهي تدرك ما يدور في رأسه اذ يكفيها ما حدث معها في الغابة حتى الآن.

لحق بها بسرعة وأمسك ذراعها قائلاً :

« هل اعتقدت أنني أوشكت على احتضانك؟ »

أجابت اليسون متصنعة الدهشة دون أن تتوقف :

« لا... أبداً ».

أخذ يضحك وهو يقول :

« حسناً، كنت سأفعل. فلا تقولي إنني لم أحذرك. فأنا سأحاول مجدداً ».

ردت اليسون وقد لاح البيت أمامها :

« هل ستفعل الآن؟ على كل أشكرك على التحذير. لقد بات علي أن أبتعد عنك قدر الامكان، أليس كذلك؟ »

نظر اليها بطرف عينه متسائلاً :

« هل ستبتعدين؟ أرجوك ألاّ تفعلي. فأنت أحد الأسباب التي دفعتني الى قبول العمل هنا ».

انفجرت بدهشة حقيقية هذه المرة :

« حقاً يا جوني؟ ».

« أجل إنها الحقيقة. كم تمنيت أن ارى كيف أصبحت بعد كل هذه السنين. لقد رأيتك عدة مرات. . . لكن من بعيد. وكنت أتمنى أن أقترب منك وأتحدث اليك. . . إنني لم أنسَ أبداً ليلة الرقص قبل. . . ».

استدارت اليه غاضبة :

« لا، أرجوك، انها احدى الليالي التي أريد نسيانها تماماً ».

تراجع الى الخلف مندهشاً وقال :

« أنا متأسف. . . ماذا فعل بك يومها؟ »

« نيال ماكين؟ لا شيء. لماذا تسأل هذا السؤال؟ »

ابتسم وهو يفرك حنكه، ثم قال :

« لأنني لحقتك تلك الليلة على أمل الانفراد بك، لكنني تلقيت لكمات مؤلمة على حنكي. لذلك من حقي أن اسأل ».

جاهدت اليسون كي تحافظ على هدوئها، وتمنع نفسها من الضحك :

« أنا متأسفة يا جوني، لكنك كنت مخطئاً. فهو لم يقصد الاّ صيد السمك ».

« ليس هذا ما قاله لي ».

أحست اليسون بنغمة خاصة في صوته جعلت البسمة تختفي عن شفتيها، فسألته بهدوء :

« وماذا قال لك؟ ».

نظر اليها وكأنه ندم على اثارة الموضوع مجدداً :

« آه، لا شيء يهم. لقد مضى زمن طويل. . . »

« أرجوك أن تخبرني ».

« قال لي، انها لي أيها الولد، انها لي وليست لك. ولن أنسى ابداً تعبير وجهه عندما قال هذه الكلمات. . . أبداً ».

عادت كلمات جوني، والطريقة التي تحدّث بها، الى ذهن اليسون في الليلة التالية. كان الوقت متأخراً، وقد أوت أمها وجسي الى فراشهما بعد عملية النقل المتعبة. نقلت اليسون نظرها في غرفة النوم الجديدة، ثم ركزتها على الكلب راستي الذي حرك ذنبه بتثاقل وكأنه يشعر بحزن

صاحبته. كانت الغرفة أصغر بكثير من غرفتها السابقة في البيت. ومع أن ورق الجدران كان من اختيارها، الاّ أن هذا المكان ليس بيت العائلة وبيت الطفولة والاحلام. أطفأت اليسون النور وتوجهت الى النافذة تتأمل من خلالها مياه الخليج. كل شيء في الخارج ساكن، وحده القمر البدر كان يتحرك في السماء الصامتة. ضاقت أنفاس اليسون، فاستدارت الى الداخل لتجد عيني الكلب تنظران اليها بأسى وحزن. قالت :

« هل تريد أن تذهب بنزهة يا راستي؟ ».

هبّ الكلب عندما سمع كلماتها، فضحكت اليسون وهي تقول :

« هيا بنا ايها العجوز. دعنا نتنزه على شاطىء البحر قليلاً ».

تسلّلا من الكوخ بهدوء بعد أن تركت اليسون الباب مشقوقاً كي لا تزعج الآخرين عندما تعود.

كان الطقس في الخارج بارداً. سارت اليسون والى جانبها راستي الذي بدا متمتعاً بالحركة بعد نهار مليء بالتعب لكل الناس. وسرعان ما وصلا الى الشاطىء، فاختارت اليسون صخرة مرتفعة لتجلس عليها متأملة المياه في حركتها الأزلية مع الرمال والحصى. انها تحتاج الى ما يعيد اليها الطمأنينة بعد ذلك النهار الطويل. . . وما هي الاّ لحظات حتى كانت السكينة قد تسللت الى نفسها وتمكنت منها.

راحت اليسون تتأمل الخليج الساكن في عتمة ذلك الليل الفضي. كل شيء يتنفس ببطء، البحر، والأشجار، والقمر، والصخور. . . والصوت الوحيد المسموع كان ارتطام الأمواج بالحصى الصغيرة ممتزجاً بحفيف أوراق الاشجار المجاورة. وفي هذا الجو العابق بالجمال، تأكدت اليسون أن أحداً لن يستطيع أن ينتزع منها هذه الطبيعة الخلابة. . . التي ستظل مزروعة في قلبها الى الأبد.

حان وقت العودة الى الكوخ. فقد أصبح الجو اكثر برودة والنسيم أشد قوة. نهضت اليسون ونادت الكلب الذي أسرع اليها من دون تردد. . . وبعد أن قطعت مسافة قصيرة، تنبهت الى أنها تسير باتجاه البيت وليس الكوخ.

قالت تحدّث نفسها بصوت عال « ولمَ لا؟ »

فالتفت اليها الكلب مستغرباً. ان نظرة واحدة أخيرة على البيت الكبير

الفارغ بعد التغييرات التي طرأت عليه قد تقضي على بعض القلق في نفسها... وفي الوقت نفسه ستكون نظرة الوداع الأخير.

واصلا السير بهدوء، وصوت الحصى يتردد تحت أقدامهما. وأخيراً لاح البيت مجللاً بالنور الفضي في ذلك الظلام الحالك.

بدا المكان مهجوراً وكأن سكانه رحلوا منذ سنين عديدة. صعدت اليسون درجات السلم الامامي ثم دخلت الى الصالة الرئيسية التي تغيرت تماماً عليها بعد أن خلت من الأثاث المعهود... وفجأة أحست اليسون بأن الروح التي عرفتها منذ سنين قد غادرت البيت الى الأبد.

نظرت الى الكلب الواقف بالقرب منها، ثم انحنت اليه واغرقت وجهها في فروه الجميل هامسة :

« انه لم يعد ملكنا يا راستي ».

همهم الكلب بصوت خافت وذيله لا يتوقف عن الحركة. انسكبت الدموع حارة من عيني اليسون وبللت فرو الكلب الساكن بين ذراعيها. كان عليها ألا تأتي الى هنا، لقد انتهى الامر وكفى. ولكن الذكريات ظلت تهاجمها حاملة معها كلمات نيال ماكبين التي قيلت قبل سنين طويلة حول البيت... وأيضاً كلماته التي نقلها لها جوني قبل يومين. لعلها كلمات لم تعن شيئاً أطلقها شاب مراهق لتبرير قتاله مع شاب آخر، لكنها أثارت الخوف في نفس اليسون وكأنها توقع لما سيحدث مستقبلاً... اغمضت عينيها بألم محاولة قطع شريط الذكريات التي تلح عليها. من الأفضل أن تبعد هذه الاحداث الى خزانة الذاكرة، فما مضى قد مضى ولا ضرورة لنبش الماضي كل لحظة.

« هيا بنا يا راستي ».

انتهت لحظة الوداع، وآن الآوان للعودة الى الكوخ. وقفت بتثاقل تمهيداً للسير

وفجأة تقوس ظهر الكلب بتوتر، وأحست اليسون بالخوف الشديد عندما سمعت وقع أقدام في القاعة ذات الارضية العارية.

« بحق السماء من هذا ».

وأول فكرة طرأت على ذهنها كانت، « كيف يظهر فجأة وعلى غير انتظار عندما يكون تفكيري مشغولاً به »... ثم ملأها الشعور بالخوف والقلق.

قالت له وهي تشكر ربها أنه غير قادر على رؤية آثار الدموع في عينيها :

« كنت على وشك الذهاب ».

وقف نيال في الباب صامتاً، ثم نادى الكلب الذي أسرع عند قدميه. وعندما مدّ يده لاضاءة النور، صرخت اليسون :

« أرجوك، لا تفعل! »

ترددّت يده قليلاً، قبل أن يسقطها الى جانبه، ثم قال بهدوء :

« لست متأكداً من وجود التيار الكهربائي، في أية حال ».

تلعثمت وهي تقول :

« آه صحيح. سيأتي الموظفون غداً لوصل التيار بالعداد ».

ثم سارت نحو الباب قائلة :

« أرجو أن تسمح لي بالذهاب الآن ».

اعترض طريقها بلطف :

« ولماذا العجلة؟ »

أجابته من دون تردد :

« لا أستطيع البقاء أكثر ».

« لا تستطيعين أو انك لا تريدين؟ ».

ومرة أخرى عاد اليها الاحساس بالضيق ممزوجاً بغضب مكتوم. لذلك صرخت بنبرة حادة :

« المسألة غير مهمة أبداً... أريد فقط أن أخرج من أملاكك! »

سألها بهدوء :

« اذن لماذا جئت من الأساس؟ »

« لا اتوقع منك أن تفهم، لذلك لن أضيع وقتي في الشرح. فهل تسمح لي بالمرور؟ »

« بعد دقيقة فقط. جئت للتأكد من أن الابواب والنوافذ مغلقة، خاصة ان هناك مجموعة من المشردين يخيمون في مكان قريب، وبينهم عدد من الشبان الشرسين. وأعتقد أن اغلاق الابواب أفضل في مثل هذه الظروف ».

« اغلقها اذن أما أنا فسأذهب ».

« سوف أرافقك في طريقة العودة الى الكوخ ».

ابتعدت اليسون عنه وكأنها خافت من شيء ما :

« لست خائفة من المشردين، فهم غير مؤذين كما تتصور ».

«هل هم مسالمون فعلاً؟ هل صادف ان التقيت أحدهم في الليل؟».

ضحكت بسخرية :

« كلا، ولا أريد أن التقيهم الآن. في كل حال، أنا اشعر بالأمان معهم أكثر مما لو كنت معك ».

وبلمح البصر عبرت اليسون الباب وهي تشعر بالسرور للقسوة التي واجهت بها نيال. وما ان وصلت الى أسفل السلم حتى أضاء النور المكان، فالتفتت لتجده واقفاً وسط القاعة يتأمل المكان بهدوء.

شعرت اليسون بضعف شديد بعد صدمة رؤيته في البيت، مما زاد في كراهيتها العميقة له. وتساءلت عما يعتريها عندما تراه؟ لقد تجاوزت فترة المراهقة منذ مدة، فلماذا اذن، كلما واجهت نيال ماكين، تنتقل فوراً الى حالة الدفاع عن النفس؟ ووجدت نفسها تسترجع كلمات جوني نقلاً عن نيال. . . الذي يقول انه لم يكذب في حياته أبداً. لقد استطاع انتزاع كل شيء منها، فهل يريد أن يحصل عليها أيضاً؟ وأقسمت اليسون في سرها أن تمنعه وأن تحبط كل محاولاته في هذا المجال.

مرّت الايام بسرعة وأصبح الكوخ شيئاً اعتيادياً بالنسبة اليهم. كان الطقس سيئاً، وبات من الصعب رؤية أحد خاصة ان الجميع يعملون داخل البيت الكبير. وانشغل نيال ماكين مع العمال يومياً، لكنه كان يذهب في بعض الأحيان لتفقد أحوال ابنه. . . أما فيما عدا ذلك، فقد قام بالمهمة العجوز فيرغوس. وأحست اليسون بالحزن لأوضاع الطفل اندريه، ليس لأن الجدالعجوز يمكن أن يسيء معاملته، بل لأنه مشغول بمتابعة نتائج سباق الخيل والمراهنات. . . ولا شك أن الصغير كان يشعر بالوحدة القاتلة في ذلك البيت وبالاخص أن الطقس الممطر جعل اللعب في الحدائق أمراً مستحيلاً.

وفي أحد الايام الممطرة قررت اليسون أمراً مفاجئاً. كانت قد وصلت مع اندريه الى محاذاة الكوخ، ولما لم تجد سيارة نيال أمام الباب التفتت الى الصغير قائلة :

« يمكنك ان ترافقني الى بيتنا اذا سمح لك جدك ».

نظر اليها اندريه وقد انفرجت اساريره :

« سوف أسأله ».

دلف اندريه الى الداخل في حين ظلت اليسون منتظرة في السيارة. لم يحدث أن تكلمت في حياتها مع العجوز فيرغوس، لكن حدسها يؤكد لها أنه لن يرفض السماح لاندريه بمرافقتها.

بعد لحظات خرج الصغير من البيت مسرعاً، ودخل السيارة وهو يقول :

« لقد وافق جدي. قال إن أبي في البيت الكبير ولذلك فلا مانع من ذهابي الى هناك ».

أطلقت اليسون العنان لسيارتها قاصدة البيت. عليها أولاً أن تخبر نيال أن ابنه موجود معها. أوقفت سيارتها أمام الباب الخلفي وطلبت من اندريه انتظارها ريثما تعود.

دخلت الى المطبخ فوجدته عارياً من كل شيء باستثناء ابريق لصنع الشاي وبعض زجاجات الحليب الفارغة. هالها أن يكون المكان خالياً بعد أن افرغ من اغراضهم ومن جسي أيضاً. التقطت أذناها صدى طرقات وغناء خافتاً منبعثاً من مكان في الداخل. توجهت الى القاعة الكبيرة وصرخت « هل هناك احد؟ ». وفجأة توقف الغناء وتوقفت الطرقات، وسمعت اليسون صوت أقدام تنزل السلم الخشبي ببطء. وأخيراً ظهر جوني بلباس العمل، وما ان لمحها حتى قال بابتسامة مشرقة :

« مرحباً يا اليسون، هل تريدين شيئاً؟ ».

« مرحباً يا جوني، انني ابحث عن رب العمل، هل هو هنا؟ ».

هز رأسه مشيراً الى الخلف :

« انه يعمل في العلية. هل تريدين أن أبلغه رسالة ما؟ ».

كان جوني قد أصبح قريباً من اليسون التي احست بعينيه تتأملانها بشغف. ابتسمت له بحرارة وهي تقارنه بالرجل القاسي الذي سرق منها بيتها. على الأقل جوني لطيف معها، ومنجذب اليها بشكل مكشوف. ومن العبث محاولة انكار هذا الواقع الذي يصر جوني على اعلانه في كل المناسبات.

وفجأة وقع شيء غريب. فقد رأت اليسون على رموش جوني بعض

الطلاء وخوفاً من أن يسقط في داخل العين اقتربت منه وأزالت الطلاء بسرعة. وعندما حاولت ابعاد يدها، كان جوني أسرع واحتضن بكلتا يديه كفها الدافىء الناعم.

شكرها جوني وانحنى لتقبيل يدها. وكانت على وشك أن تبعد يدها بسرعة عندما استرعت انتباهها حركة مفاجئة، فاذا بها ترى نيال واقفاً بصمت في أعلى السلم. وبغريزة لم تدر لها معنى، توقفت عن سحب يدها... بل تركتها بين يدي جوني بحرية ودلال وهي تتضاحك مسرورة. كانت عيناها تراقبان نيال، وأحست بالخوف عندما شاهدت موجات من الغضب تحتل كافة قسمات وجهه... وتذكرت المعركة التي دارت بين الاثنين قبل تسع سنوات. وأخيراً حطم نيال الصمت، وقال بصوت هادىء لا انفعال فيه :

« هل تريدين رؤيتي؟ لقد شاهدت سيارتك من النافذة ».

استدار جوني ببطء وقد أدرك أنهما ليسا وحيدين. أما اليسون فقد ردت قائلة :

« نعم. سأحضر اندريه معي الى البيت في هذا الطقس الماطر ».

« شكراً لك. أنا آسف لأن الوقت مضى بسرعة دون أن ادري ».

سيكون معي في الكوخ الى أن تنهي عملك. ولقد اخبرنا والدك بالأمر أيضاً. ».

« حسناً. اذا وجدت صعوبة في ذلك، فارجو أن تحضريه الى هنا كي اهتم به بنفسي ».

« لا بأس أبداً ».

ثم التفتت الى جوني قائلة :

« اذا اردتم زيارتنا بعد انتهاء العمل، فسأعد لكم الشاي بالحليب ».

« فكرة ممتازة، هل عندك مانع يا نيال؟ ».

هز نيال رأسه بالنفي ثم اختفى في العلية... وعندها احست اليسون بشيء غريب أعطاها دفعة من التشفي والسرور. ذلك أن حركة جوني البريئة أثارت غضب نيال بشكل واضح. صحيح أنه يكرهها، لكنه في الوقت نفسه لا يحب رؤيتها مع رجال آخرين. ابتسمت اليسون في سرها وهي تغادر البيت. واذا كان تفكيرها صحيحاً، فهذا يعني أنها تمتلك

سلاحاً، وان كان صغيراً، في معركتها ضدّ عدوها اللدود. انها معجبة بجوني، ولا مانع عندها من استغلال ذلك ضد نيال الذي يملك قلباً من فولاذ حسبما تروي عنه نساء القرية. وطوال الطريق، كانت اليسون تفكر بصديقتها ميغ، التي لا شك تتلهف لسماع آخر التفاصيل عن المعركة الحامية التي تدور في شيلبيغ. وتمنت اليسون أن تحضر ميغ وزوجها بيل للتخييم في أراضي البيت قريباً.

ومن دون أي تخطيط، اعتادت اليسون على احضار اندريه الى البيت كل يوم بعد انتهاء الدراسة. لم يعترض أحد على ذلك، فالأم وجسي تحبان الصغير وترتاحان اليه.

وقد قررت جسي، عندما رأته لأول مرة، أن الصبي بحاجة الى تغذية ممتازة... وهذا ما دأبت عليه دائماً. واضطرت الأم واليسون للاعتراف بأن خطة جسي قد نجحت، اذ سرعان ما ظهر اللون الأحمر في خديه وأخذ اندريه يكسب وزناً اضافياً.

وأدركت اليسون، يوماً بعد يوم، انها تزداد تعلقاً بهذا الصغير. وكم كرهت نفسها لضعفها أمامه، خاصة أنها تدرك أن ساعة الفراق آتية لا ريب، وستكون قاسية للغاية. ومع ذلك تعمّق حبها لاندريه بقدر ما كان يزداد كرهها لأبيه.

وبرزت مشكلة جديدة في الأفق عندما حان موعد العطلة المدرسية التي تمتد على مدى ستة أسابيع كاملة. وهذا يعني أن اندريه سيكون وحيداً لأن أباه لا يستطيع ترك أشغاله للاهتمام به طيلة هذه الفترة. أفضت اليسون بمخاوفها هذه الى جسي، مساء يوم الخميس الذي يسبق العطلة، في حين كان اندريه يلاعب الكلب راستي في الحديقة الخارجية.

سألتها جسي دون أن تتوقف عن اعداد السندويشات :

« وما العمل يا ابنتي؟ ».

واصلت جسي تجهيز الشاي والسندويتشات للرجال العاملين في البيت، وهو الأمر الذي رتب منذ أن دعت اليسون جوني قبل أيام. فقد استمرت جسي في تزويدهم بالاكل والشاي عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وأصر نيال على دفع الثمن لأن هذه الخدمة توفر عليهم الكثير من الوقت والجهد. ولكن اليسون لم تكن مرتاحة للفكرة بعكس جسي التي

سرت بها كثيراً. فقد كانت مدبرة البيت تحب نيال وجوني للطريقة التي كانا يعاملانها بها. وتذكرت اليسون كيف أنها عادت في وقت متأخر ذات يوم ودخلت الى المطبخ لتفاجأ بأن جسي لم تكن وحيدة. وسمعت صوت نيال يقول: «انك طباخة ماهرة... لو أنك أصغر بعشرين سنة فقط» وسمعت أيضاً صوت جسي الضاحك: «هيا اذهب ودعك من هذه الالاعيب». عند هذا الحد دخلت اليسون، فاستدار الاثنان لمواجهتها. ظلت جسي مبتسمة، أما نيال فقد ماتت الضحكة على شفتيه وعاد التجهم على وجهه، ثم انحنى مسلماً وقال:

«سأذهب الآن. شكراً لك يا جسي».

خرجت اليسون من ذكرياتها البعيدة لتجد أن جسي ما زالت تنتظر جواباً على سؤالها، فقالت:

«ماذا نستطيع أن نفعل؟ لو أن الامر بيدي فأنا على أتم الاستعداد لابقائه هنا لكن...»

عضت اليسون على شفتها بحزن دون أن تستطيع اكمال جملتها.

ربتت جسي على كتفها بحنان قائلة:

«انني أفهم وضعك يا صغيرتي. المسألة صعبة بالنسبة إليك، لكن لو اقترحت أنا وأمك أن نحضره الى هنا...»

قاطعتها بسرور:

«هل تفعلين حقاً؟».

هزت جسي رأسها بهدوء وقالت:

«سأفعل. لكن عليك ألا تتعلقي بأندريه الى هذا الحد».

«لا ضرورة لتحذيري، فأنا مدركة لخطورة الوضع. كيف يمكن أن يحدث هذا يا جسي؟ كيف أكره الأب، بينما أنا أحب الابن، كيف؟»

أخفت اليسون رأسها بين يديها، لكن نظرات جسي المتفحصة ظلّت تلاحقها بتمعن، ثم سألتها بهدوء:

«هل أنت متأكدة من شعورك؟»

سألتها باستغراب شديد:

«شعوري نحو من؟».

«هل صحيح أنك تكرهين نيال ماكين؟ أقصد ان الكراهية كلمة

قاسية جداً...»

رفعت اليسون عينيها الى جسي قائلة:

«اذن يمكنني استعمال عبارة «لا أرتاح اليه» وهذا شيء أنا متأكدة منه تماماً. لكن ماذا تقصدين بالضبط؟».

تشاغلت جسي مجدداً في أعداد السندويشات، وقالت دون أن تنظر الى اليسون:

«لا شيء، مجرد كلام من امرأة عجوز. فقط...»

ترددت قليلاً، فحثتها اليسون على اكمال عبارتها بسرعة.

أضافت مدبرة المنزل تقول:

«حسناً، لا أعتقد أن نيال يكرهك كما تحاولين تصوير الأمر بالنسبة الي».

أظهرت اليسون علامات الدهشة البالغة، لكن جسي تابعت دون توقف:

«انها الحقيقة. جاء في أحد الأيام لارجاع اكواب الشاي وكنت أنت تلاعبين اندريه في الحديقة».

استعجلتها اليسون عندما لاحظت ترددها، فمضت العجوز تقول:

«رأيته يتوجه الى النافذة ويراقبكما بهدوء. ثم لمحت وجهه... بدا وكأنه فقد قسوته وصلابته، بل يمكنني القول إنه كان حانياً ولطيفاً. ولا شك أنه جذاب جداً عندما يفقد صلابته المعهودة».

ردت اليسون بحزم:

«كان ينظر الى اندريه أساساً».

«كلا، هذا ما اعتقدته في بادىء الأمر. لكنني عندما اقتربت منه تأكدت انه ينظر اليك بالتحديد».

قالت اليسون بقسوة شديدة:

«اذن هو يعاني من بعض أشكال فقدان الذاكرة. انه يكرهني بقدر ما اكرهه. صدقيني يا جسي عندما أقول ان المشاعر متبادلة».

لكن شيئاً في داخلها كان ينتفض ضدّ هذه الكلمات، لذلك عمدت جاهدة الى اخفاء مشاعرها في اعماق عقلها وهي تؤكد لنفسها: «لا أريد نظراته على الاطلاق، سواء كانت قاسية أو لطيفة».

انهت جسي أعداد السندويشات، ثم وضعتها في كيس من البلاستيك وهمّت بالتوجه الى البيت الكبير. لكن اليسون اوقفتها قائلة :

« سآخذ الشاي والسندويشات بنفسي ».

رفعت جسي حاجبيها دهشة، في حين تابعت اليسون كلامها ضاحكة :

« سأسلمها الى جوني أو أحد الاخوين كاميرون... إنني ارتاح لجوني ».

وبدون أن تنتظر جواباً من جسي، حملت اليسون الحوائج وسارت باتجاه البيت. عندما دخلت الى القاعة الرئيسية، كان جوني قد نزل لتوه من الدور العلوي، فقال :

« كنت في طريقي الى الكوخ. هيا دعيني أحمل الاغراض عنك ».

سلمته معدات الشاي والسندويشات وهي تسأله :

« أين الاكواب؟ ».

نظر اليها مبتسماً وقال :

« في المطبخ... أعتقد أنها بحاجة للغسيل ».

ضحكت اليسون قائلة :

« حسناً، سأغسلها بنفسي ».

سارا معاً باتجاه المطبخ. وعندما انتهت من اعداد الأكواب قالت له :

« سأساعدك في حمل الشاي الى الطابق العلوي، فانا أريد أن أرى ما تم انجازه حتى الآن ».

ابتسم بهدوء وهو يقول :

« اهلاً وسهلاً، وسأكون دليلك في الجولة ».

سألها جوني وهي تسكب الشاي :

« هل ستذهبين الى احتفالات القرية الأسبوع المقبل؟ ».

« بالتأكيد. وأنت يا جوني، هل ستذهب؟ ».

« طبعاً. ولا تنسي حفلة الرقص في نهاية السهرة ».

هزت رأسها بالنفي... ثم أدركت فجأة الى أين سيؤدي بها الحديث، لذلك غيرت الموضوع قائلة :

« أية العاب ستشارك فيها؟ ».

« قبل كل شيء سباق الجري. ما هي امكانياتك في هذه الرياضة؟ ».

ضحكت اليسون بصوت مرتفع وهي تقول :

« لا أبداً. ان عضلات قدمي باتت متعبة هذه الايام، لذلك أفضل مشاهدة السباق على الاشتراك فيه ».

ابتسم دون أن يرفع عينيه عنها :

« كنت أمزح. ما رأيك في المشاركة بلعبة أخرى؟ ».

« ربما. انت تعرف أن عندي سبعة مناصرين صغار يؤيدونني في كل البطولات ».

« سيصبح لديك مناصر ثامن، هذا اذا لم أكن مشاركاً في اللعبة نفسها... ».

« وعندما يصبح كل واحد منا وحده، فماذا عن الرقص، هل تتركين لي رقصة او اثنتين؟ ».

ابتسمت قائلة :

« اذا اردت ذلك ».

« اتمنى ذلك بشدة ».

حمل جوني اكواب الشاي والسندويشات، قائلا :

« هيا بنا الآن، والاّ فسأضطر الى الحنث بوعدي ».

نظرت اليه باستغراب متسائلة :

« وعدك؟ ».

« وعدي لنفسي... بأن لا أعانقك دون دعوة مسبقة ».

كانت قد عبرت الباب قبله، لذلك لم ير ابتسامتها العريضة. أصبحت اليسون متأكدة الآن أن جوني لا يحتاج الى أية مناورة لاستعمالها ضد نيال ماكين اذا ما قررت اكتشاف حقيقة موقفه منها. لكن عليها أن تكون حذرة جداً اذا ما لعبت بهذه النيران... والا أحرقت اصابعها بنفسها.

٦ - الوحش

كان نيال يعمل مع الأخوة كاميرون في غرفة النوم الرئيسية في الدور العلوي عندما وصلت اليسون وجوني حاملين الشاي والسندويشات. وقد فوجئت اليسون بما حل بالغرفة التي كانت واحدة من أكبر الغرف في البيت كله. كانت الغرفة فارغة من كل شيء، الأثاث وورق الجدران والسجاد واللوحات الفنية والستائر، بالاضافة الى جدار خشبي قطعها الى قسمين متساويين.

توقف الأخوان كاميرون عن العمل عندما دخلت اليسون وجوني، أما نيال الذي كان في العلية فقد انضم اليهم بعد أن أعلمه جوني بأن الأكل جاهز.

وجه نيال سلاماً مقتضباً الى اليسون أعقبه بكلمة شكر. وقبل أن تنطق اليسون بكلمة، تسلم جوني الحديث قائلا :

« هل يمكنني أن آخذ اليسون في جولة داخلية، فهي راغبة في رؤية ما أنجز من عمل حتى الآن؟ ».

سار نيال الى الطاولة التي وضعت عليها المأكولات، ثم التفت الى اليسون قائلا :

« طبعاً. لكن انتبها الى باب المطبخ فهو يحتاج الى تثبيت ».

قال جوني :

« سنهتم بذلك. هيا بنا يا اليسون ».

وبينما هما يغادران الغرفة، وضع جوني يده على ذراع اليسون لافساح الطريق أمامها. فتساءلت اليسون بفرح طفولي عما اذا كان نيال يراقب

المشهد.

صعدا السلم الخشبي ودخلا الى العلية الأولى. ذهلت اليسون للاتساع الكبير الذي بدا عليه المكان خاصة بعد أن أزيل كل الأثاث منه، باستثناء الحصان الخشبي الذي أصبح ملكا لأندريه، والذي يربض الآن تحت غطاء من القماش لحمايته من الطلاء. التفتت الى جوني بعد لحظات قائلة :

« إنه يختلف كثيراً عما كان عليه في السابق ».

هزّ رأسه مبتسماً وقال :

« هذا صحيح. انتظري حتى تري بقية الغرف، هيا بنا ».

ظلت اليسون تتبع جوني في جولته الشاملة وهي تلاحظ التغيير الذي طرأ على كل الغرف، إلاّ أن دهشتها الكبيرة ظهرت عندما خرجا من العلية الرابعة التي تحولت الى حمّام أنيق، ودخلا الى ما أصبح الآن مطبخاً حديثاً مكتملاً.

وفجأة ادركت اليسون أن العلية كلها باتت تشكل وحدة سكنية قائمة بذاتها، لذلك التفتت الى جوني تسأل بلهفة :

« هل هذا هو المكان الذي سيعيش فيه اندريه ونيال؟ ».

هزّ جوني رأسه وأجابها بهدوء :

« أجل، ألم تعرفي ذلك من قبل؟ ».

« لا... تخيّلت أنه سيترك ادارة الفندق الى شخص آخر ».

« أبداً. سيتولى بنفسه ادارة الفندق. فهذا الدور مستقل تماماً. بعد ذلك سيحضر مربية تتولى الاشراف على اندريه، في حين يرعى هو الضيوف شخصياً. وأعتقد أنه سيختار لهذا الفندق اسماً مرموقاً ».

لم تدر اليسون كيف فكرت بجسي عندما جاء ذكر المربية. لكن جوني تابع يقول بعد تردد :

« وعلينا أن ننتظر لنكتشف اذا ما كانت ادارته ناجحة أو فاشلة ».

قالت بهدوء :

« يجب أن لا يفشل ما دام الطريق سيشق قريباً... تماماً مثل افياموره ».

نظر اليها مندهشاً :

« الطريق ليس مؤكداً بعد. انها مجرد شائعة لم تتحقق. وأنت تعرفين

كم من الوقت سيمضي قبل التنفيذ، اذا ما كان الطريق مقرراً بالفعل ».

تلفتت اليسون حولها وهي تقول :

« يبدو أنه لا ينتظر كثيراً حتى ينفذ ما يقرره! ».

أجابها ضاحكا :

« إنها الحقيقة. ومع ذلك فأنت تكرهينه بشدة، أليس كذلك؟ ».

« وهل الأمر واضح الى هذا الحد؟ ».

ماتت البسمة على شفتيه وهو يقول :

« لا. لكنني الى حدّ ما حساس جداً في ما يتعلق بك. إنني ارتاح اليه، رغم انه ضربني من أجلك قبل تسع سنوات. ».

نظرت اليه غاضبة وقالت :

« قلت لك الاّ تذكر الموضوع أمامي ابداً ».

أطلق جوني صفيراً ساخراً وهو يتراجع متظاهراً بالخوف :

« أنا آسف. لكنك تصبحين أجمل عندما يظهر غضبك ».

ردّت اليسون بهدوء :

« لست غاضبة ابداً ».

ابتسم بلطف :

« طبعاً لا، فأنا لا أدخل في نقاش مع السيدات ».

لم تستطع أن تكبت ضحكة عالية :

« يا لك من انسان لا سبيل لاصلاحه على الاطلاق ».

أجابها بهدوء :

« لو أنني أعرف معنى عبارتك هذه لكنت غضبت... لذلك لن اسأل عن معناها. والآن هيا بنا لأريك ماذا فعلنا في الدور السفلي ».

« سألحق بك بعد دقيقة ».

كانت تريد القاء نظرة متفحصة على الخزائن والأدراج المصنوعة من الخشب المصقول.

قال لها وهو يغادر الغرفة :

« إذن سأشرب الشاي قبل أن يبرد. حاذري باب المطبخ ! ».

لم تكن اليسون تستمع الى جوني، بل كانت تتلمس الخزائن والأدراج المنقوشة بعناية بالغة. وبعد أن تفقدتها كلها، لاحظت عدم وجود اشارة

تدل على مصدر الصناعة.

وتساءلت باهتمام عما إذا كان نيال صنعها بنفسه. فقد كان أبرز النجارين في القرية مما أثار حسد أخيها اليك، أما اليسون فكانت معجبة، وان بالسر، بالأدوات الخشبية الصغيرة التي كانت تبدعها يداه الرقيقتان آنذاك.

ألقت اليسون نظرة أخيرة على المطبخ وسارت باتجاه الباب وفجأة تذكرت تحذيرات نيال وجوني، لكن بعد فوات الأوان. أحست للحظة أن الباب غير ثابت وحاولت الابتعاد عن الطريق. لكن صرخة عالية انطلقت منها عندما انهار الباب باتجاهها فاضطرت الى التراجع... ثم وقعت على ظهرها وانساب ثقله على قدميها.

استلقت على الأرض نصف مغمى عليها، بينما جاء من البعيد وقع اقدام مسرعة على السلم.

حاولت النهوض عن الأرض دون جدوى. وخلال لحظات كان وجه نيال بالقرب من وجهها ثم وجه جوني... وبقدرة قادر انزاح الثقل الذي كان يربض على قدميها. منعتها دموع الألم من الرؤية، لكن بدا لها أن نيال هو الذي ركع إلى جانبها قائلاً :

« اليسون، هل تسمعينني ؟ ».

أغمضت عينيها بشدة، ثم أحست بذراعه القوية خلف ظهرها لاسنادها. قالت :

« نعم... انني بخير ».

استدار نحو جوني الواقف بقربه، وقال :

« جوني، أرجوك أن تحضر قطعة قماش مبللة جيداً بالماء. »

أسرع جوني نازلا قبل أن ينهي نيال كلامه. أما اليسون فقالت :

« لكنني لست... »

قاطعها بلطف :

« ظلي مستلقية. كيف وقع الحادث ؟ ».

« طلبت من جوني أن يتركني لأتمعّن في الادراج والخزائن. لقد حذرني من الباب، لكنني لم أستمع اليه. أنا آسفة ».

وفجأة انفجرت بالبكاء، رغم محاولتها التجلد أمام عدوها اللدود.

وبعد أن هدأت قليلاً، نظرت إلى قدميها فأرعبتها رؤية الدماء تغطي الساق حتى القدم.

أزاح نيال وجهها ناحيته وهو يقول :

« لا تنظري الى قدمك، فالجرح ليس عميقاً كما تتصورين. لا شك أنك جرحت نفسك وأنت متراجعة ! هل يمكنك الجلوس ؟ ».

هزّت رأسها، بينما فكرها مشتت بين ملاحظة أن نيال ماكين لم يكن العدو القاسي الصلب بل هو لطيف وحنون الآن، وبين الشعور بالألم الذي اشتد وجعلها تتأوه بصوت عال.

عاد جوني حاملاً القماش المبلل، فطلب منه نيال أن يلف القطعة حول الجرح بانتظار نقلها إلى البيت. رفعها نيال قليلاً، فأحست بيده قوية حول خصرها... ثم أحست ببرودة الماء على الجرح فانتفضت بقوة. قال نيال مخاطباً جوني :

« اذهب واخبر السيدة ماكاي وجسي انني سأحضر اليسون بعد قليل... واطلب منهما أن يبعدا اندريه عن المكان ».

سأله جوني :

« هل تحتاج الى مساعدة ؟ ».

« لا، سأتدبر الأمر. فقط دع السيدة ماكاي وجسي تستعدان وسألحقك بعد دقيقة ».

وخرج جوني بسرعة لتنفيذ ما طلب منه.

طلب نيال من اليسون أن تنهض قليلاً، وقال :

« سوف أربط قطعة القماش كي لا تسقط ».

أخرج منديلاً من جيب سرواله وربط به قطعة القماش المبللة وهو يقول مبتسماً :

« لست طبيباً ماهراً ».

ثم نظر إليها بلطف قائلاً :

« أنا آسف لهذا الحادث يا اليسون ! ».

هزّت رأسها محاولة حبس الدموع في عينيها :

« انها غلطتي أنا، وهي نتيجة الاهمال. فأرجوك أن لا تلوم نفسك أو جوني بسبب ذلك ».

نهض واقفاً وقال :

« سأحملك الى البيت. فقط استلقي بهدوء وتأكدي انني لن اسقطك على الطريق ».

انحنى واضعاً يده اليمنى تحت ذراعيها ويده اليسرى تحت ركبتيها، ثم حملها بخفة وكأنه يرفع ابنه الصغير. وقال لها بهدوء :

« ضعي ذراعك حول عنقي. هل أنت مرتاحة ؟ ».

أطاعته من دون تردد وهي تقول :

« أنا مرتاحة. شكراً لك ».

شعرت اليسون أن الهدنة التي جاءت مع الحادث قد انتهت. واذا بها تتوتر بشدة وهي تدرك حقيقة ما يجري الآن. ثم سمعت صوته وقد ظهرت القسوة فيه :

« ارتاحي ».

إذن، فقد لاحظ نيال التوتر أيضاً. حاولت جاهدة كي ترتاح، لكنّ وعداً قطعته على نفسها قبل مدة، ظل يسخر منها. فقد أقسمت بألاّ تدعه يلمسها... والذي يحدث الآن غير ذلك تماماً. تنفست اليسون بعمق محاولة السيطرة على أعصابها في هذه اللحظات. نزلا السلم بهدوء وجو من الصمت المتوتر يخيّم عليهما. نظر إليها وهما يعبران القاعة الرئيسية متسائلاً :

« هل أنت على ما يرام ؟ ».

ردّت بالايجاب دون أن يغيب عنها التوتر الشديد الذي سيطر على أعصابها وجسدها. فهو قريب جداً منها، وجهه الذي وصفته بأنه وجه قرصان لا يبعد كثيراً عن وجهها. حاولت أن تخفف من سرعة تنفسها من دون نجاح يذكر، وتمنت في سرّها أن لا يسمع دقات قلبها المتزايدة باستمرار. لم تكن قادرة على تحويل نظرها عنه.... ولاحظت كم أن ذقنه صلبة، وانتبهت الى شارب حديث بدأ ينمو بسواد ملحوظ. كان شعره أسود حالكاً، ولذلك أطلق عليه لقب نيال الأسود.

ارتجفت اليسون بدون ارادة عندما أصبحا خارج البيت. فقال لها نيال بلطف :

« سنكون في الكوخ بعد دقيقة. انك بحاجة الى شراب ساخن ».

ولكنّها لم تجرؤ على القول أن الرجفة لم تكن بفعل البرد، بل بفعل الخوف. . . الخوف من هذا الانسان الغريب الذي عاد مجدداً الى حياتها، والذي يهددها في أكثر من مجال.

وجدت اليسون، عندما وصلت الى الكوخ، أن جسي شديدة القلق عليها فاضطرت الى التأكيد المرة تلو الأخرى بأنها على ما يرام، وأن قدمها مصابة بجرح طفيف فقط. أما نيال فقد تولى الاشراف على كل شيء بعد أن شاهد توتر مدبرة البيت العجوز.

وتخلّت اليسون عن فكرة الاعتراض، عندما واجهها نيال بتلك النظرة الحديدية الباردة التي اعتادتها منه. الشيء الوحيد الذي لم يعترض عليه هو رفض اليسون السماح لجسي بالذهاب لاحضار أمها من غرفة الرسم.

ابتسم لجسي وهو يقول :

« اليسون محقة في عدم ضرورة مجيء السيدة ماكاي، لكن أرجوك أن تعدّي لها كوباً من الشاي ».

ثم انحنى وأزال قطعة القماش التي أصبحت مبللة بالدم.

كانت اليسون مستلقية على الفراش وقد وضعوا تحتها منشفة عريضة لمنع تلوث السرير بالدم. لاحظت انه تردّد قليلاً فسألته :

« ماذا في الأمر ؟ ».

أجاب مشيراً إلى ساقيها :

« الجوارب تعيقني عن معالجة الجرح ».

قالت :

« انها جوارب طويلة، فما العمل ؟ »

وانتظرت اليسون أن يترك الغرفة حتى تخلع جواربها. وما هي الاّ لحظات حتى حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد أحست كفيه تمسكان الجوارب وتنزلانها الى أسفل بنعومة. فوجئت اليسون بالحركة فانتصبت واقفة وقد تضرّج خداها باللون الأحمر. نقلت نظرها بين وجهه وبين جواربها التي استقرت عند قدميها وقالت :

« كيف تجرؤ على ذلك. . . أنت. . . »

حدّق نيال في عينيها دون أن يزيل البسمة عن شفتيه :

«ها أنت تهددينني من جديد؟ سبق لي ان أخبرتك كيف أردّ على

التهديدات والتحذيرات ».

ثم انحنى على الجرح يعالجه بعناية بالغة، في حين عادت اليسون الى الاستلقاء وصدرها يخفق بالغضب المكتوم. ثم استدارت عندما سمعت وقع قدمي جسي التي قالت على الفور :

« هل اتصل بالطبيب ؟ ».

قال لها ويداه تواصلان تنظيف الجرح :

« لا ضرورة للطبيب يا جسي. فالجرح سطحي ويكفي استعمال المطهرات ».

أنهى احكام الشريط اللاصق، ففتحت اليسون عينيها لتجد جسي واقفة فوق رأسها وعلامات القلق والاهتمام بادية على وجهها. ابتسمت اليسون قائلة :

« اطمئني يا جسي، أنا على ما يرام ».

وضعت جسي كوب الشاي على الطاولة قرب السرير قائلة :

« هيا انهضي إذن »

ركزت وسادتين خلف ظهرها، ثم التفتت الى نيال قائلة :

« كوب الشاي الخاص بك في المطبخ، واندريه ينتظرك هناك أيضاً ».

حمل نيال وعاء الماء والمناشف الملوثة وسار باتجاه الباب قائلاً :

« سأغسل يدي أولاً، ثم أذهب الى المطبخ ».

وما ان غادر الغرفة حتى وجهت جسي نظرة ذات مغزى الى اليسون وهمهمت قائلة :

« لقد شاهدت أعداء كثيرين في حياتي، لكن هذا العدو مختلف تماماً ».

وللحظة اعتقدت اليسون أن جسي رأته وهو ينتزع جواربها، لذلك قاطعتها :

« ماذا تقصدين ».

«أنت تعرفين تماماً. كان شديد القلق عليك، ومع ذلك تقولين. . . ».

توقفت عن الكلام عندما سمعته يغادر الحمّام، ثم تابعت تقول :

« الأفضل أن أذهب إلى المطبخ لرعايتهما. وفي هذه الأثناء عليك شرب الشاي ساخناً ».

غادرت جسي الغرفة بسرعة، وظلت اليسون في فراشها تتذكر أحداث

اليوم بكل تفاصيلها.

بعد قيلولة صغيرة، اتصلت اليسون هاتفياً بصديقتها ميغ. ولكنها لم تستطع أن تكشف لها كل مكنونات صدرها لأن الهاتف موجود في القاعة الرئيسية بالقرب من المكان الذي تسهر فيه أمها وجسي. هدفها الوحيد من الاتصال كان أن تلح على ميغ في المجيء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معاً. فقد حضرت ميغ السنة الماضية في موسم الاحتفالات وأمضت وقتاً ممتعاً مع اليسون، بينما ظل الصغيران مع السيدة ماكاي في البيت. ولم تمانع أمها هذه المرة أيضاً في رعاية الصغيرين، بل رحبت بذلك قائلة ان المشاركة في الاحتفالات ستخرج اليسون من الملل الذي تعيش فيه الى حد ما.

سرّت ميغ بالدعوة كثيراً، وقالت إن زوجها بيل الموجود في الخارج الآن لن يمانع أبداً. ثم أضافت قائلة :

« وماذا عن الرجل المتوحش ؟ »

ردّت اليسون :

« حسناً ان الكلام صعب. . . »

قاطعتها ميغ :

« أنت غير قادرة على التكلم بحرية الآن ؟؟.

« أجل. لقد انتقلنا الى الكوخ مؤخراً، وهو أصغر كثيراً من البيت ».

« فهمتك تماماً، وعلى كل سأتصل بك في وقت لاحق. هل سنذهب الى حفلة الرقص خلال الاحتفالات ؟ »

« نعم ».

« رائع، فأنا أحب الجو الاجتماعي الموجود في قاعة البلدية. أودعك الآن، وسأتصل فور عودة بيل الى البيت ».

وضعت اليسون سماعة الهاتف وهي تفكر فيما ستراه ميغ في جوني الذي سيكون معهما في السهرة. ثم حدّقت في قدمها المجروحة متسائلة عما إذا كان الجرح سيزول قبل نهاية الأسبوع المقبل.

رنّ جرس الهاتف بينما كانت اليسون في الفراش. رفعت السماعة بسرعة متوقعة صوت ميغ، لكنها فوجئت بجوني يقول :

« آسف لاتصالي في هذا الوقت المتأخر، لكنني أردت الاطمئنان عنك ».

« شكراً على الاتصال يا جوني، أنا بخير الآن ».

« عظيم. أنا متأسف يا اليسون. لم يكن من المناسب أن أتركك وحيدة في المطبخ ».

« ما هذا الكلام. كان إهمالاً مني أن لا أستمع إليك. لذلك لا ضرورة للوم نفسك ».

« حسناً، سررت جداً لأنك على ما يرام. هل تريدينني أن أحضر صباحاً لآخذك إلى المدرسة ؟ »

ابتسمت قائلة :

« هذا لطف منك، لكنني في الحقيقة. . . »

« انني أصر على ذلك، سأمر عليك عند الساعة التاسعة إلاّ الربع. تصبحين على خير يا اليسون ».

أعاد جوني السماعة بدون أن يترك لها مجال الاعتراض. وأحست اليسون بالارتياح لبادرته الطيبة التي لا يمكن أن تخطر على بال نيال. لكنها كانت مخطئة في اعتقادها هذا. ذهبت لاخبار أمها عن الاتصال الذي أجراه جوني معها قبل دقائق، فاستغربت ردّ فعل السيدة ماكاي المفاجىء التي قالت :

« آه يا إلهي ».

سألتها اليسون بدهشة :

« ماذا ؟ لا أعتقد أن هناك شيئاً ».

قاطعتها الأم :

« لا أبداً، لكن نيال جاء عندما كنت نائمة، وقد عدت لتوي من غرفة الرسم. . . وعرض أن يقلك بسيارته إلى المدرسة صباحاً. قلت له ان لا ضرورة لذلك لأنك على ما يرام. آه كم أتمنى أن لا يرى جوني وهو يوصلك، وإلاّ اعتبر الأمر إهانة له ».

ضحكت اليسون بهدوء :

« هل هذا كل شيء ؟ ليس عندي مانع في أن يرانا معاً. . . لا مانع على الاطلاق ».

وتساءلت اليسون عندما أنهت عبارتها عما إذا كانت تحاول اقناع أمها أو إقناع نفسها. لكن رنين الهاتف قطع عليها حبل تساؤلاتها. كانت ميغ،

التي أكدت لها أن بيل وافق على فكرة التخييم، وأن العائلة كلها ستأتي يوم الخميس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في حدائق البيت الشاسعة.

وفي تلك الليلة، ذهبت اليسون الى النوم وهي أكثر سعادة من أي وقت مضى.

مضى آخر يوم دراسي قبل العطلة دون أي عمل يذكر. فقد انشغل الأولاد، الذين امتلأت أفكارهم ومشاعرهم بعطلة الأسابيع الستة، في ألعاب مسلية وهم غير قادرين على استيعاب الدروس. لذلك جلست في مقعدها وراحت تراقبهم بفرح. وفي خضم لعب الأطفال ولهوهم عادت بها ذاكرتها الى الساعة التاسعة الا الربع هذا الصباح عندما وصل جوني بسيارته الى الكوخ. وقد وعدها بأنه سيأتي عند الساعة الثانية عشرة الى المدرسة ليأخذها إلى الغداء، وأيضاً ليعيدها إلى المدرسة بعد ذلك. كان جوني يقود سيارة قديمة، لكن السيارة التي شاهدتها اليسون الآن كانت سيارة زرقاء جديدة... انها سيارة نيال ماكين التي توقفت في باحة المدرسة مثيرة موجة من الغبار والحصى الصغيرة.

التفتت اليسون إلى الأطفال قائلة :

« إلى الغداء أيها الأولاد، أما أنت يا اندريه فان اباك آت لأخذك ».

فتح الباب بهدوء بينما كانت اليسون تتجه الى طاولتها لتأخذ حقيبة يدها. نظرت من فوق كتفها وكأنها فوجئت بوجوده. قالت بلطف :

« أهلاً. لقد جئت من أجل اندريه ؟ ».

أجابها قائلاً :

« ومن أجلك أيضاً ».

« لكن جوني قال... ».

قاطعها بهدوء :

« انه مشغول بطلاء الخزائن وبعض الأبواب. ثم التفت الى ابنه قائلاً : مرحباً يا اندريه، هل كنت تلميذاً جيداً ؟ ».

« نعم يا أبي ».

غابت أصواتهما وهما يغادران الغرفة تاركين اليسون تجمع أشياءها وحدها، لاحظت أنه لا وجود للدفء والحنان في حديثهما، وكأنهما غريبان التقيا مؤخراً. تساءلت اليسون بقلق، كيف يمكن أن يكون نيال قاسياً تجاه

هذا الصغير ؟ وتذكرت فجأة أن نيال لم يستعمل كلمة ابني عند الحديث عن اندريه أمام جسي والسيدة ماكاي، بل كان يكتفي بكلمتي اندريه والصغير. وفي طريقها الى الخارج تذكرت شيئاً آخر وهو أن نيال لم يتحدث إلا نادراً عن زوجته، وكان عندها يستعمل عبارة ـ أم أندريه ـ في اشارته اليها.

سألها نيال وهي تدخل إلى السيارة :

« هل انت قادرة على الدخول بمفردك ؟ ».

« نعم، شكراً لك ».

كانت تتمنى أن تذهب سيراً إلى البيت. لكن قدمها ما زالت تؤلمها، وهي لا تريد الانتكاس تمهيداً لزيارة ميغ المقبلة والاحتفالات التي ستقام خلال أيام.

سارت بهما السيارة مسرعة معتدلة من غير أن يتكلما. بل اكتفيا بالحديث إلى أندريه الذي لم يكن مدركاً للجو المتوتر المحيط به. ذلك أن اليسون لم تكن قادرة على التحدث الى الرجل البغيض الذي يجلس إلى جانبها ملقياً يديه على مقود السيارة: اليدان اللتان... قطعت حبل أفكارها عامدة ومصممة على عدم التفكير فيه. ويبدو أن حركتها الحازمة لفتت انتباهه فقال :

« هل قدمك تؤلمك ؟ ».

أجابت بالإيجاب... لكنها ندمت على الفور لكذبتها هذه. وزادها سؤاله كرهاً له، خاصة وهي تلاحظ علاقته الباردة بابنه الذي هو من لحمه ودمه. وكانت تود أن تصرّح بمشاعرها بصوت عال لكنها لم تجرؤ، لأن هناك أشياء يجب أن لا تعلن.

لم يتوقف أمام البيت الكبير كما توقعت اليسون، بل عبر الممر الضيق متوجهاً نحو الكوخ ثم قال لأندريه :

« جسي عرضت أن تتناول الغداء معهم، فهل تريد أن تتغدى معي في البيت الكبير ؟ ».

غادر نيال السيارة دون أن ينتظر جواباً من أندريه، فأسرعت اليسون خارجة قاطعة الطريق على المساعدة التي يمكن أن يقدمها. وعندما أصبح الثلاثة في الخارج وضع الصغير يده في يد اليسون قائلاً :

« أفضل أن أتناول الغداء مع الآنسة ».

لاحظت اليسون أن عضلات فك نيال تقلصت غضباً ولكن بشكل غير واضح.

فأرادت أن تقول له إنها لا تنوي سرقة أندريه منه... لكنها لم تفعل.

سارت اليسون واندريه يداً بيد ولحقهما نيال عن قرب، سمعتهم جسي فقالت من الداخل :

«أنا في المطبخ. وعندما شاهدت نيال حوّلت الحديث اليه : لقد رجعت مجدداً ؟ حسناً يمكنك أخذ الغداء معك إلى البيت. ثم أضافت قائلة لأليسون : هيا إجلسي واريحي قدمك، سأكون جاهزة بعد لحظات».

لحقت اليسون بجسي إلى المطبخ، وأخذت مقعدها الى المائدة. أما نيال فقد ظلّ واقفاً في الباب يراقب اندريه الذي احتل المقعد المجاور لأليسون. فكرت اليسون وهي تنظر إليه أنه مسؤول عن العلاقة غير الواضحة مع ابنه، ولاحظت أن هناك نظرة خاصة في عينيه الآن غير تلك التي تعودتها منه. لكن القسوة عادت إلى وجهه عندما سلمته جسي الطعام.

فالتفت الى اليسون قائلاً :

« سأعود عند الساعة الواحدة ».

وغادر المكان بسرعة، قبل أن تتمكن اليسون من شكره.

وهكذا بدأت العطلة. أبلغت جسي اليسون أن اندريه سيأتي كل يوم إلى الكوخ في الوقت الذي يعمل فيه الأب في البيت. خفق قلب اليسون فرحاً وسألتها :

« كيف طلبت منه ذلك ؟ ».

ابتسمت جسي بسرور وردت :

« أثرت الموضوع مباشرة. قلت له أن عليه التفكير في ابنه خلال العطلة، وعما إذا كان يريدني أن اهتم به. وسألني اذا كان اندريه سيسبب لي المتاعب لأنه ينوي تركه معه في البيت. فقلت له ان ذلك يعتبر جريمة، وأشرت إلى أن أصدقاء سيزورونا هذا الأسبوع من بينهم طفلان وهذا ما سيسلي اندريه ».

توقفت جسي للحظات ثم تابعت :

« عندها أصر على أن يدفع لي بدل اتعابي، لكنني أخبرته انك

ستساعدينني في الاهتمام باندريه، وأنك لا يمكن أن تقبلي أية أموال... قال لي انني محقة في اعتقادي هذا، وانه لاحظ التغيير في شخصية اندريه بفضل تعاملك واهتمامك به ».

وأخيراً وجهّت نظرة حادّة إلى اليسون قائلة :

« وهكذا ترين أنه يشعر بالتقدير لما قمت به ».

ابتسمت اليسون قائلة :

« يا لها من طريقة رائعة للإعراب عن التقدير ».

وفجأة دخل اندريه من الحديقة حاملاً باقة من الزهور والأعشاب قدمها إلى اليسون ثم غادر مسرعاً. وقد أدى هذا المشهد غير المتوقع إلى قطع الحديث عن نيال ماكين.

اليوم بدأت العطلة فعلياً. سيكون اندريه معهم لعدة أسابيع، وبعد أيام سينضم اليهم ميغ وبيل... لقد أخذت اليسون تحس أن الحياة ستكون أفضل.

استيقظت اليسون صباح الخميس وهي تشعر بالنشاط والقوة. كانت قدمها قد تحسنت بشكل ملحوظ، ولم يعد يظهر من الجرح سوى خدش غير مرئي. انها تنتظر احتفالات يوم السبت على أحر من الجمر، وخاصة حفلة الرقص في النهاية وخلال الايام القليلة الماضية كان نيال أو أحد الأخوين كاميرون يحضر لأخذ الطعام أو الشاي، وليس جوني... ولكن اليسون لم تفكر في الأمر كثيراً. وبعد ظهر يوم الخميس قررت أن تحمل الشاي بنفسها الى البيت الكبير. كانت قد ارتدت ثوباً برتقالي اللون يناسبها تماماً استعداداً لوصول ضيوفها في وقت لاحق بحيث بدت جميلة جداً لكنها لم تكن تدري ذلك.

عندما اعترضت جسي على طلبها، قالت لها اليسون :

« قدمي تحسنت، وأنا احتاج الى بعض التمرين ».

ومن دون أن تنتظر جواباً، حملت الشاي وسارت مسرعة... ولم تر طبعاً ابتسامة جسي ذات المعاني الكثيرة.

دخلت الى البيت الكبير وقلبها يخفق بسرعة غير معتادة. سمعت أصواتاً من الدور العلوي فصرخت بصوت عال :

« الشاي جاهز ».

لم تتوقع أن يكون نيال أول النازلين. عندما شاهدها توقف ثم تابع سيره. قالت له بسرعة :

« لست متأكدة إذا كانت أكواب الشاي في المطبخ أم في الدور العلوي ».

« انها في المطبخ ».

وصل نيال الى جانبها بدون أن يرفع عينيه عنها، بل راح يتفحصها بتمعن مما أشعرها بالاحراج الشديد. أحست انه يحللها جزءاً جزءاً ثم يعيد جمعها وينتظر النتيجة النهائية. وأخيراً مدّ يده لتناول صينية الشاي منها.

استدارت اليسون نحو المطبخ وهي تحس بنظراته تلاحق كل خطوة من خطواتها. حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي، لكنها عجزت، وأخيراً قالت لنفسها : لماذا أهتم بنظراته هكذا؟ دخلت الى المطبخ وعمدت الى غسل الأكواب، ثم نقلتها الى الطاولة قائلة :

« هاك الاكواب، أعتقد أنك تستطيع حملها الى الأعلى. سأرحل الآن ».

شعرت برغبة عارمة في ضربه، وفي البكاء... وفي الهرب بسرعة. وأدركت بأنه يحس بكل ما تفكر به، وذلك من خلال الابتسامة الخفيفة المرتسمة على شفتيه.

وفجأة قال لها بنعومة :

« هل تريدينني أن أرسل وراء جوني لمساعدتك في سكب الشاي؟ ».

واستطاعت الرد بصعوبة :

« أعتقد أنك لا تستطيع الاستغناء عن عمله قليلاً أليس كذلك؟ ».

اتسعت ابتسامته وهو يقول :

« ليس بالضروري، ولكنني متأكد أنك لا تريدين اضاعة جمال الفستان عليّ أنا وحدي! ».

مرت اليسون الى جانبه دون أن تجيب، محاولة عدم الأقتراب منه قدر الامكان. فهي لا تريد الدخول في نقاش مع شخص تدرك تماماً انها لن تربح معه، بل ستفقد أعصابها فقط. وقبل أن تصل الى الباب، كان قد وضع ذراعه أمامها قائلاً :

« ما الأمر يا اليسون؟ ».

أجابته بجفاء :

« لم أسمح لك بأن تناديني باسمي الأول. والآن هل تفتح لي الطريق رجاء ».

انحنى بسخرية دون أن يسحب ذراعه من أمامها :

« المعذرة يا آنسة ماكاي، كانت زلة لسان. هل قلت شيئاً آخر أثار غضبك؟ ».

ردّت بغضب :

« كل شيء فيك يثير غضبي. ولكنني سأكتفي من الآن فصاعداً بأن اهتم بابنك فقط دون أن احضر لكم الشاي والطعام ».

وأدركت على الفور أنها اصابت وتراً حساساً في نفسه. اذ سحب يده من أمامها قائلاً :

« أنا متأسف ».

ثم استدار عائداً الى الطاولة. ترددت اليسون للحظات قبل أن تغادر المطبخ عائدة الى الكوخ. إنه مسؤول عن هذا النقاش، لكنها ندمت للكلمات القليلة الأخيرة التي قالتها. وحاولت اقناع نفسها بأن لا أهمية لذلك، ومع ذلك كانت تحس أنها جرحته في الصميم. التفتت خلسة الى المطبخ قبل أن تبتعد. كان نيال مسمراً قرب الطاولة لا يأتي بحركة. لقد اخطأت تماماً في تصرفها، فهو يملك قلباً يشعر ويحس أيضاً.

مساء الخميس أعاد الى ذهن اليسون ذكريات الأيام الخوالي. كانت هي ومیغ في غرفة الجلوس وحيدتين تحتسيان الشوكولا الساخنة بعد أن أوى بيل والطفلان الى الفراش في الخيمة المنصوبة في الخارج. ومع أن اليسون ألحت كي ينام الصغيران داخل المنزل، إلاّ أن ميغ أصرّت، ذلك أن الخيمة مجهّزة أحسن تجهيز لاستيعاب الجميع.

كان الليل قد انتصف، لكن الصديقتين تجاوزتا تعبهما ونعاسهما واستغرقتا في الحديث الذي لا ينتهي. وعندما وصلت اليسون في سردها الى الكلمات الأخيرة القاسية التي وجهتها الى نيال في المطبخ، عضت ميغ شفتها متسائلة :

« هل غضب لتلك الكلمات؟ »

«كلا، وكم تمنيت أن يغضب فعلاً فقد اعتدت على ذلك. فقط استدار مبتعداً. أعرف أنني اذيته بعمق، وهذا ما يخيفني. وعندما جاء لأخذ اندريه آخر النهار، هربت من الطريق. تصرف طفولي سخيف على ما أعتقد؟».

ابتسمت ميغ وهي تقول:

«اعتقد أنه يتحمل جزءاً من المسؤولية. والآن دعيني منه، أريد أن أعرف المزيد عن جوني الذي يبدو أنه...»

فهمت اليسون ما قصدته صديقتها، فقاطعتها مبتسمة:

«أجل، انه شاب لطيف. ستتعرفين اليه يوم السبت، اذا لم يكن قبل. آه كم أنا سعيدة لوجودك هنا يا ميغ، والطفلان يمكن أن يلعبا مع اندريه وأعتقد أنك ستحبينه أيضاً، فهو طفل رائع».

نظرت ميغ الى صديقتها وعلى وجهها عبارة أدركتها اليسون على الفور قائلة:

«حسناً، لا تقوليها، اياك أن تتعلقي به كثيراً... فأنا لن افعل».

ثم القت نظرة خاطفة على ساعة يدها، وهبت واقفة:

«يا الهي، إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. أعتقد أن بيل سيقتلك خارج الخيمة اذا ما تأخرت هكذا كل يوم».

وأنهت الصديقتان السهرة العارمة بضحكات خافتة، ثم توجهت كل منهما الى فراشها مسرورة.

عندما جاء اندريه صباح اليوم التالي، كان التوأمان يلعبان الكرة مع والدهما في الحديقة، في حين كانت ميغ واليسون وجسي في الداخل. أما نيال الذي أوصل ابنه. فقد غادر المكان على الفور.

أشارت جسي قائلة:

«انظر الى الاولاد».

كان الصغيران اللذان لم يتجاوزا الثالثة قد اقتربا من اندريه للتعرف عليه، في حين وقف الأب يراقب المشهد من بعيد.

همست ميغ قائلة:

«انه ليس اكبر من ابني في كل حال».

أجابت اليسون بنعومة:

«لقد أصبح في هذا الحجم لأن جسي تطعمه بشكل جيد».

التفتت اليسون مبتسمة الى جسي التي كانت منشغلة في اعداد الفطور للجميع وما يميز جسي في هذا المجال أنها تستطيع التأقلم مع كل الظروف وقد وفضت دائماً عرض اليسون بتقديم يد المساعدة في المطبخ، لأنها تفضل العمل منفردة، وتستمتع بالنتائج التي تكون مرضية في كل الاوقات. إلا أنها سمحت للصبية بالتسوق من القرية، لذلك تركت ميغ واليسون الأولاد في عهدة بيل، وجسي في المطبخ والسيدة ماكاي في غرفة الرسم في البيت الكبير. كانت السيدة ماكاي تتغيّب كثيراً عن الكوخ ولا تعود اليه الا مساء، بعد أن تكون قد أمضت نهارها كله في العمل اذ يظهر أن نيال أطلق يدها في الديكور والتصميم بحيث حلّت فيها شخصية جديدة تماماً تعرف ما تريد وتعمل جاهدة لتحقيق الأفضل. ومع أن اليسون رحبت بهذا التغيير، الا أنها كانت تشعر في اعماقها بأن نيال ينوي سرقة كل شيء منها. ولم تكن قادرة على البوح بهذا الشعور الدفين حتى لأقرب صديقاتها. وظل السؤال الملح: ماذا سيشتري بعد؟ ومن أين حصل على الأموال التي قلبت حياتها رأساً على عقب؟

في ذلك المساء، توجهت اليسون وميغ وبيل الى مقهى القرية لتمضية بعض الوقت هناك، بعد أن أخلد التوأمان الى النوم في غرفة اليسون. وهناك التقوا جوني الذي توجه اليهم مبتسماً فور مشاهدتهم. قدمته اليسون الى بيل وميغ التي راحت تتأمله بتمعن وكأنها تدرس كل تفاصيله استعداداً لتقديم تقرير مفصل عنه الى اليسون بعد عودتهم الى البيت.

بعد التعارف، جلس الأربعة في احدى الزوايا الهادئة. وسرعان ما غرق جوني وبيل في حديث لا ينتهي عن كرة القدم والسيارات، بينما تحادثت اليسون وميغ في حوار متنوع.

وفجأة تغيّر الحديث، وتناول الرجلان قصة البيت الكبير. وبما أن بيل أبدى اهتماماً ملحوظاً بما يعمله جوني، فقد عمد الأخير الى ورقة وقلم ليرسم المخططات والتصميمات التي تعدّ للبيت. هز بيل رأسه وأطلق صفيراً خفيفاً عندما حدثه جوني عن الشقة القائمة بذاتها في علية البيت، وقال:

«لا شك أن الشقة وحدها ستكلف مبلغاً كبيراً».

ردّ جوني:

«إنه محشو بالأموال».

ثم التفت الى اليسون مبتسماً :

« أنا شخصياً لا أمانع في حصة بذلك المنجم، فهل تمانعين يا اليسون؟ ».

ردّدت اليسون كلامه باستغراب شديد :

« منجم؟ أي منجم؟ ».

نظر اليها باستغراب أشد :

« هل تقصدين أنك لم تسمعي عن المنجم؟ انها احدى القصص التي لا يمكن تصديقها... مع أنها حقيقية تماماً ».

وعندما لاحظ الاهتمام على وجوه الثلاثة، ضحك قائلاً :

« الأفضل أن أخبركم القصة بالتفاصيل. هل انتم مرتاحون؟ حسناً، فلنبدأ، لم أحظ في حياتي بمثل هذا الجمهور المهتم ».

قاطعته اليسون بنفاد صبر :

« جوني؟ ».

« عفواً. القصة أن نيال وشقيقه وبحارين آخرين أمضوا قبل سنوات، أحد أيام الصيف في أحد مقاهي الريو. وهناك التقوا رجلاً عجوزاً حدّثهم عن منجم يمتلكه في أدغال البرازيل وقال لهم إن ضائقة مالية حلّت به مما دفعه الى عرضه للبيع.

قد يبدو حديث العجوز مختلفاً، لكنّ نيال والثلاثة الآخرين كانوا مليئين بالمال بعد رحلة بحرية طويلة لذلك اشتروا المنجم بسعر بخس جداً، حوالى مئتي جنيه استرليني تقريباً. وبالمقابل أعطاهم العجوز عدة وثائق ووقع لهم إيصالاً غير شرعي طبعاً وغادر المكان مسرعاً بحجة عمل عاجل يتطلب وجوده. ولا داعي للقول إنهم اكتشفوا الخدعة في اليوم التالي عندما راجعوا الوثائق في أحد مراكز الشرطة ».

تمهل قليلاً لاحتساء رشفة من فنجان القهوة ثم تابع :

« وفي مركز الشرطة أخبروهم أن المنجم حقيقي، لكنه مغلق منذ سنوات ولا يفيد على الاطلاق ».

أحست اليسون من الابتسامة الخبيثة التي علت وجه جوني وهو ينظر اليهم، أن شيئاً غير متوقع حدث بعد ذلك. وحثته ميغ قائلة :

« وماذا بعد ؟ ».

« ظل نيال محتفظاً بالأوراق لمجرد الذكرى. وفجأة، قبل ثلاث سنوات عثر عمال منجم آخر على عروق حديدية جديدة في الأرض... وبين ليلة وضحاها أصبح منجم نيال لا يقدر بثمن. وقد بحث أصحاب المنجم الأول عن أصحاب المنجم الثاني لشرائه منهم. وبالفعل باع الشركاء الأربعة المنجم بمبلغ مذهل لم يكشف عن قيمته بعد، وقسموه فيما بينهم ».

ثم توقف عن الكلام وراح يتأمل الوجوه المندهشة أمامه، ثم قال :

« أعرف أنها قصة خيالية... لكنها حدثت فعلاً ».

تنفست اليسون بعمق وقالت :

« الآن عرفنا من أين له الثراء ».

وأدركت اليسون أن الشائعات والتوقعات المختلفة التي انتشرت في القرية لم تكن شيئاً بالمقارنة مع الحقيقة. وبسبب الرجل العجوز في ذلك المقهى المجهول تمكن نيال ماكين من الاستيلاء على البيت. ووجدت نفسها تتساءل مجدداً عن زوجته، فلا شك أنه كان متزوجاً ورزق بأندريه قبل أن تهبط عليه الثروة المفاجئة... ومع ذلك كان لا يزال يعمل في البحرية التجارية. وأحست أن هناك شيئاً غير معقول في هذا المجال، لكنها لن تعرفه ابداً. والملفت للنظر أن اندريه لم يشر مطلقاً إلى حياته السابقة، وهي لن تسأله مهما كان الثمن. وأخيراً أنهى الجميع قهوتهم وتواعدوا على اللقاء ليلة الاحتفالات في اليوم التالي.

كانت الألعاب تجري في حدائق مكشوفة لا تبعد كثيراً عن مركز القرية. وقد اعتاد الناس المجيء الى الاحتفالات للمشاركة في الألعاب أو إلى لقاء الأصدقاء القدامى، أو لمجرد تمضية أمسية ممتعة من المغامرات والأحاديث الشيقة.

وصلت اليسون وضيوفها إلى ساحة الاحتفالات، وكان التوأمان أسرع في الركض إلى الداخل وهما يتراكضان ويتضاحكان بسرور. وتساءلت اليسون عما إذا كان الصغيران سيجدان اندريه ونيال، خاصة ان هذا الأخير لم يأتِ صباحاً إلى البيت الكبير مع أن سيارته كانت متوقفة أمام بيت أبيه عندما عبراه قبل قليل.

ازدحمت الساحة بالسيارات والشاحنات والدراجات الهوائية والنارية، وانشغلت اليسون برد التحية لكل الذين تعرفهم. في حين ظلت ميغ تلّح

عليها بالقول :

« لا تنسي أن تدليني على الوحش عندما يظهر ».

« لن أنسى، وأعتقد أنك ستعرفينه من خلال وصفي له ».

« وصفك جعله يبدو كقرصان بلحية سوداء كثيفة. وأنا اتوقع رؤية رجل بربطة على إحدى عينيه ويسير على قدم من خشب ».

قاطعتها اليسون ضاحكة :

« لا تبالغي في تعليقك، فقط استعملي بعض الخيال ».

ثم التفتت إليها بلطف قائلة :

« آه كم أنا سعيدة لوجودك معي يا ميغ. لو تتصورين كيف يكون الأمر من دون وجود شخص تثقين به وتفتحين له قلبك. لقد تحولت أمي وجسي إلى جانبه. صحيح أنني سعيدة للتغيير الذي طرأ على أمي، لكنها أصبحت. . . ».

توقفت اليسون وكأنها تبحث عن التعبير المماثل. فأمسكتها ميغ من ذراعها بحنان قائلة :

« انني أفهم مشاعرك يا اليسون، وصدقيني إذا قلت إنني أشعر نحوه مثلما تشعرين. لكن. . . ترددت ميغ للحظات قبل أن تتابع قائلة :

« لكنه مع ذلك يبدو إنساناً مميزاً، أقصد أنه ذو طبيعة خاصة ».

وافقت اليسون مرغمة :

« انه مميز فعلاً، وإذا تجرأت على القول بأنه إنسان جذاب فسأختنق بيدي الاثنتين ».

انفجرت اليسون وميغ بالضحك وانضمتا إلى حوالى مئة شخص أصبحوا الآن في الداخل، بينما العشرات ما زالوا يتوافدون من كل حدب وصوب. كان الحضور موزعين في الحقل الشاسع يراقبون الباحات المختلفة التي ستجري عليها الألعاب الرياضية التي ينتظرها الجميع.

أشارت اليسون إلى مجموعة من الدراجات الهوائية القديمة وقالت مبتسمة :

« قد أجرب حظي في سباق الدراجات ».

كانت جسي والسيدة ماكاي قد أكدتا أنهما ستلحقان بالجميع بعد الانتهاء من بعض الأعمال العاجلة. تلفتت اليسون تبحث عنهما،

وتساءلت في سرها عما إذا كانت أمها قد قررت التأخر عامدة كي تأتي برفقة نيال مؤكدة للقرية كلها أن النزاع قد مات إلى الأبد.

وهكذا أمضت اليسون وقتها في حديث متشعب مع ميغ وبيل بينما كانت عيناها مركزتين مرة على التوأمين اللاهيين في الحديقة، ومرة أخرى على الطريق بانتظار مجيء جسي والسيدة ماكاي.

وأخيراً لمحته قرب المدخل الرئيسي مع اندريه. وبحركة لا شعورية هزّت ذراع ميغ هامسة :

« انه هناك ».

استدارت ميغ بهدوء كي لا تلفت انتباه أحد والقت نظرة خاطفة ثم قالت :

« انني لا أصدق عيني ».

سألتها باستغراب :

« لا تصدقين ماذا ؟ »

كانت اليسون قادرة على رؤية نيال من فوق كتف ميغ. وفجأة لمحها اندريه، فهزّ يده هامساً بعض الكلمات، ثم انطلق مسرعاً باتجاهها. وقبل أن يصل حذّرت صديقتها :

« اندريه قادم نحونا، فانتبهي لما ستقولينه ».

ثم رحبت به قائلة :

« الصغيران يلعبان هناك، هل ترغب بالانضمام إليهما ؟ ».

هز اندريه رأسه موافقاً وأسرع ناحية مجموعة الأولاد. وعندها قالت ميغ :

« لا أصدق انني رأيته أخيراً. هل تعتقدين أنه سيأتي للسلام عليك ؟ ».

أجابت اليسون بلهجة جادة :

« لن يفعل إذا سمحت الظروف، لكن أمي قد. . . ».

وهنا لمحت أمها وجسي تدخلان الحقل، فتابعت تقول :

« لقد وصلت الآن، وسرعان ما تتضح الأمور ».

حدث اللقاء بعد نصف ساعة تقريباً. كانت الجموع قد تجمهرت على طول طريق السباق، حيث بدأ الصغار في ألعابهم قبل الكبار. وقفت

جسي بثوبها الأزرق الأنيق الى جانب اليسون والسيدة ماكاي. وفجأة شاهدتها تلوّح لشخص ما ثم تسلّم عليه. . . . فأدركت انه نيال.

وهكذا تم اللقاء، وتحققت رغبة ميغ. راقبت اليسون نيال وابنه ينسحبان ويغرقان في الألعاب الرياضية المختلفة. وفجأة احست برغبة عارمة في الوقوف على رأي ميغ في نيال ماكين. . . من دون أن تدرك أسباب هذه الرغبة.

٧ ـ عناق صغير

لم تستطع اليسون الانفراد بميغ إلاّ في وقت متأخر عندما ذهب بيل وجوني لشراء بعض السندويشات والمرطبات. كان الصوت طاغياً، بحيث اضطرتا الى الالتصاق ببعضهما كي تسمعا ما يقال. بدأت ميغ الحديث قائلة :

« ماذا عن الشخص الذي تعلمين ؟ ».

« فهمت قصدك، ما رأيك به ؟ ».

« هل تعتقدين حقاً أنه غير جذاب ؟ ».

نظرت إليها باستغراب. فقد اعتادت الصديقتان الحميمتان التحدّث بصراحة، مهما كانت الصراحة موجعة. والآن جاء وقت الامتحان بالنسبة لأليسون التي اضطرت للاعتراف :

« أعتقد أنه يملك شيئاً ما ! ».

« أنا أقول انه جذاب. بصراحة يا اليسون كنت أتوقع شخصاً كريهاً. . . لكنه في الحقيقة ساحر جداً. عندما قدمته لي أمك، نظر إلى وجهي مباشرة بحيث شعرت أن عينيه تتسللان إلى أعماقي. ولما تكلّم، جاءت كلماته لطيفة وناعمة ووجدت صعوبة في الاقتناع بأنه الشخص الذي تكرهينه. ولولا أنني أعرفك جيداً، لقلت إنك تفتعلين المواقف كلها ».

انقطع الحديث عندما عاد الرجلان بالأكل والمرطبات. وطيلة السهرة ظلت اليسون تفكر بكلام ميغ وهي تشعر أنها فقدت حليفها الأخير.

لذلك، أخذت تفكر بجدية عما إذا كان الخطأ في شخصيتها هي.

لعلهم على صواب في رؤيته جذاباً ورائعاً، بينما رؤيتها هي متأثرة بالنزاع العائلي وما حدث قبل تسع سنوات وعشرات الأسباب الأخرى. وتذكرت أيضاً شعورها في العلية عندما زلت بها القدم فأسرع إلى إسنادها... كم تمنت لو أنه يظل ممسكاً بها. قطع صوت جوني حبل أفكارها :

« أين أنت يا اليسون ؟ ».

« متأسفة يا جوني، كنت سارحة بأفكاري ».

« دعينا نخرج إلى الهواء الطلق ».

عرفت اليسون أن جوني لا يبحث عن الهواء الطلق، ومع ذلك وافقت على الخروج مدفوعة برغبة لم تعرف لها معنى. كان الطقس في الخارج بارداً، فشعرت اليسون برجفة خفيفة. وضع جوني يده على كتفها متسائلاً :

« هل تشعرين بالبرد ؟ ».

« قليلاً ».

أحست أنه ينوي معانقتها، لذلك أعدت نفسها لتقبل العناق بهدوء.

سارا في الحديقة حتى وصلا إلى مقعد منعزل. فاعتقدت أنه يأخذها إلى هناك. وفجأة أحست ذراعيه تحتضنانها بقوة. جاهدت كي تستجيب له، لكنّ شيئاً ما أفقدها الاندفاع والحرارة. وبعد عدة دقائق دفعته عنها متصنعة الغضب، وهمست قائلة :

« لقد فاجأتني يا جوني ! ».

حاول الاقتراب منها مجدداً وهو يقول :

« أرجوكِ لا تعذبيني، فأنت جميلة وفاتنة. تعالي ».

« وأنت خطير جداً ».

وتمنت أن تطلّ عليهما ميغ لانقاذها من هذه الورطة.

لكن جوني واصل المحاولة والكلام :

« أنت تعرفين أنني انتظرت هذه المناسبة طويلاً ».

فكرت اليسون أن مد الحديث معه هو الأفضل. فقد أدركت بعد فوات الأوان أنها أخطأت في الخروج من الحفلة والانفراد به... فجوني لم يستطع أن يبعد افكارها عن الشخص الذي تكرهه والذي يراه الجميع جذاباً

ورائعاً.

واصل جوني الحديث :

« وكم تمنيت أن أطلب منك الخروج معي في سهرة... لكنني كنت خائفاً ».

قاطعته اليسون وهي توجه خطواته نحو الاتجاه الصحيح إلى الحديقة.

« أنت تخاف ؟ انني لا أصدق ذلك ».

« أجل كنت خائفاً. فأنت مختلفة تماماً يا اليسون... هناك شيء ما ساحر في شخصيتك. أنت أجمل وأروع من أي وقت مضى. آه كم أنا عاجز في إيجاد الكلمات المناسبة ».

انحنى عليها يعانقها بنعومة فائقة. ثم أخلى سبيلها فجأة وقال بصوت متكسر :

« أنني أدرك الآن يا اليسون أنك لست لي. انك... لعلها المرة الأولى في حياتي التي يجتاحني فيها هذا الشعور. لكنني أعرف... »

انقطع كلامه فجأة. اقتربت اليسون منه وعانقته بحنان، فقد كانت الكلمات عاجزة عن التعبير. ثم سارا عائدين الى الحديقة. وكم تمنّت اليسون أن يعثر جوني على الفتاة التي تسعده وتحبه، فهو إنسان يستحق كل خير... وأدركت فجأة أنها وحيدة، بلا أحد على الاطلاق.

كان نيال قد دعا بيل وميغ إلى زيارة البيت الكبير لمشاهدة التعديلات التي أدخلت عليه. وفي صباح اليوم التالي، الأحد، توجه الزوجان مع اليسون الى البيت مستعملين مفتاح غرفة الرسم الذي تستعمله أمها. وعندما دخلوا القاعة همست ميغ بتعجب :

« إنه مختلف تماماً الآن ».

وافقت اليسون بهزة خفيفة من رأسها. فقد تقبلت التغيير، وبات باستطاعتها زيارة البيت من دون أن تشعر بالحزن أو الغضب.

وعما قريب ستكون قادرة على الدخول من الباب الرئيسي كأي غريب آخر.

أخذتهما اليسون إلى العلية حيث الشقة القائمة بذاتها. وتوقفت قليلاً في

المطبخ حيث انهمك بيل في تفحص الأدراج والخزائن. قالت ميغ بدهشة واضحة :

« سيكون مطبخاً رائعاً عندما يكتمل... أنه أجمل من مطبخي ! ».

أجابت اليسون :

« الواقع أن العلية ستكون بيتاً صغيراً. اعترف أنه ذكي في اختياره. انه هو الذي صنع الخزائن ».

نظرت ميغ إلى الباب قائلة :

« إذن هنا وقع الحادث ».

قاطعتها اليسون وهي تفتح الباب :

« أجل. لقد ثبتوه بعد الحادث مباشرة. كانت غلطتي في الأساس ».

أسرعت اليسون بأخذ ميغ وبيل إلى الدور السفلي لأنها شعرت بعدم الرغبة في تذكر ما وقع في ذلك اليوم المشؤوم. لم يكن قد أجري أي تعديل في الدور السفلي، لذلك لم يمض الثلاثة وقتاً طويلاً هناك بل توجهوا إلى غرفة الرسم للاطلاع على تصاميم السيدة ماكاي.

فغرت ميغ فمها دهشة عندما رأت القاعة الرئيسية كما تتخيلها السيدة ماكاي، وقالت لاليسون :

« إنها تغريني بأن أزور الفندق عندما ينتهي العمل فيه. الحقيقة يا اليسون ان المكان سيصبح مركزاً مقصوداً. »

ردت اليسون بلا مبالاة ظاهرية، لكنها كانت تتنزف في الداخل :

« ربما كنت على صواب، لكن الزمن سيكشف كل شيء ».

عاد الثلاثة إلى الكوخ لتناول العشاء. فهذه آخر ليلة تستطيع فيها الصديقتان الحديث بصراحة وحرية، ذلك أن بيل وميغ سيغادران عائدين الى بيتهما غداً صباحاً. كانت ميغ واليسون منهكتين من احتفالات الليلة الماضية، لذلك ما ان بلغت الساعة الحادية عشرة حتى قررتا الذهاب إلى الفراش. شيء آخر زاد في تعب اليسون. فكرت وهي راقدة في فراشها: ما فائدة استمرار المعركة مع العدو؟ أحست أنها تغرق في دوامة رهيبة، من دون أن يفهم أحد حقيقة مشاعرها. لا شك أن الخطأ فيها وليس

في الآخرين.. وبحركة مفاجئة دفنت وجهها في الوسادة وانخرطت في موجة بكاء حادة.

مرّ اليومان التاليان بهدوء قاتل. فبعد رحيل ميغ وبيل صباح الاثنين عادت الحياة الى روتينها المعتاد مما أشعر اليسون بالرغبة في الهرب من البيت. تجنبت قدر استطاعتها المرور قرب البيت الكبير، وظلت بعيدة عن مطبخ الكوخ عندما كان نيال يأتي لأخذ الطعام والشاي. أمضت وقتها مع اندريه والكلب راستي في نزهات ريفية تمتعت خلالها بلكنة اندريه الأجنبية وهو يتكلم الانكليزية التي بدأ يفهمها الى حد ما. وقد اخبرها الصغير في إحدى المرات عن رحلته الى اسكتلندا، لكنه لم يستطع أو لم يرد أن يتحدث عن حياته السابقة... ولم تجرؤ اليسون بدورها على السؤال. المسألة لا تعنيها على الاطلاق، لكنها ترغب في معرفة شخصية أم اندريه وتفاصيل حياتها.

تجولا كثيراً في الحدائق والسهول التي زادتها الشمس المشرقة والهواء العليل جمالاً على جمال. ولولا ذلك الظل الأسود الذي بقي مسيطراً على تفكير اليسون لكانت العطلة من أروع ما يكون. ولم تفلح كل المحاولات لطرد الوساوس المقلقة، فقد عاد نيال ماكين للبقاء في القرية إلى الأبد. وليس هناك سوى طريقة واحدة وهي أن تغادر اليسون القرية. ولكنها لا تطيق البعد عن بيتها وأهلها.

يوم الاربعاء، تركت اليسون الصغير اندريه مع الكلب في الحديقة وذهبت لشراء بعض الحاجيات الضرورية التي تريدها جسي. وعندما عادت بعد حوالى الساعة لم تجدهما في المكان الذي تركتهما فيه، لذلك راحت تبحث عنهما وهي تدرك انهما لا يمكن أن يكونا قد ابتعدا كثيراً. سارت إلى نهاية الحديقة واتجهت في الممر الذي اعتادت أن تأخذ اندريه عبره... وبعد لحظات شاهدت اندريه يقف قرب القارب في حين ظل الكلب بعيداً.

قالت له عندما وصلت إليه :

« لم أعرف إلى أين ذهبت ! وعليك ألاّ تغادر الحديقة قبل أن تطلب الإذن ».

نظر إليها بندم قائلاً :

« لم يكن هناك أحد لألعب معه. لذلك جئت لرؤية القارب الذي أحبه كثيراً »

ابتسمت بحنان وهي تربّت على كتفه :

« ربما يأخذك أبوك بالقارب الى الجزيرة، هناك ».

وأشارت بيدها إلى الجزيرة القريبة المغطاة بالأشجار الكثيفة.

سألها وعيناه لا تحيدان عنها :

« هل ستأتين معنا ؟ ».

داعبت اليسون شعره وقد أحرجها سؤاله. ثم أجابت بعد لحظات :

« ربما أرافقكما ذات يوم. هيا بنا الآن، فلا شك أن جسي قلقة عليك، وقد أعددت بعض الكعك الذي تحبه جداً ».

عادا باتجاه الكوخ يداً بيد. وعندما وصلا الى محاذاة البيت الكبير القت نظرة سريعة الى الدور العلوي فاذا بها تشاهد رجلاً يراقبهما من خلف النافذة، ولكنها لم تستطع تحديد هويته لأن الشمس المنعكسة على الزجاج جعلت رؤيته صعبة. حدسها أكد لها أنه نيال، وبحركة غريزية تركت يد الصغير وكأنها تريد أن تؤكد للأب أن اندريه ليس لها ابداً.

في اليوم التالي تلقت اليسون رسالة من اللجنة التعليمية تعلمها فيها أن المدرسة ستغلق حتى إشعار آخر بعد عطلة رأس السنة، وأن التلاميذ الباقين سيلحقون بمدرسة ستراكوران، وأن باصاً خاصاً سينقل الأطفال إلى المدرسة الجديدة والأهم أن اليسون ستلحق بالمدرسة مؤقتاً ريثما يصدر قرار تعيينها الجديد. ومع أن اليسون كانت تتوقع بعض هذه الإجراءات، إلاّ أنّ الرسالة أصابتها بصدمة عنيفة بدت واضحة على وجهها، فسألتها أمها التي كانت تجلس معها إلى مائدة الفطور قائلة :

« ماذا في الرسالة يا اليسون ؟ ».

ودون أن تجيب سلمت الرسالة الى أمها، التي أعادت القراءة مرتين وهي لا تصدق عينيها. ثم قالت بحزن واضح :

« أنا متأسفة يا اليسون، لكن ألم تتوقعي هذه الإجراءات ؟ ».

« كنت أعرف جزءاً من التفاصيل. لكنني لم أرغب في إزعاجك إذ تكفيك همومك وأشغالك. لذلك عمدت إلى تجاهل الموضوع ».

« كان عليك أن تحدثيني. الآن عرفت لماذا أنت تعيسة الى هذا الحد ؟ ومع ذلك فان ستراكوران غير بعيدة ».

«لعل معجزة ما تحدث قبل نهاية العطلة ».

لكنها تدرك في أعماق نفسها أن المعجزات لا تحدث هكذا.

وفي وقت لاحق من بعد الظهر، التقت اليسون جوني أمام مكتب البريد، لأول مرة بعد ليلة الاحتفالات.

قال لها وهو يدخل إلى المكتب :

« دقيقة واحدة فقط، وسأرافقك في طريق العودة ».

بعد لحظات لحق بها على الطريق وهو يدس علبتي سكاكر في جيب سترته. قالت له :

« لو عرفت أنك تريد سكاكر لكنت أحضرتها لك معي ما دمتُ قد قصدت المكتب لبعض العمل ».

أجابها مبتسماً وهو يأخذ الأشياء من يدها :

« وكيف ستعرفين ما دمت تتهربين من طريقنا دائماً ؟ ».

اعترضت بنعومة عندما وضع يده على خدها :

« انتبه يا جوني. تحمل لي حاجاتي وتمسك يدي ؟ لا شك ان أهل القرية سينسجون حولنا العديد من الروايات والشائعات ! ».

« سنعطيهم شيئاً يبعد عنهم الملل. هل تريدينني أن أعانقك أمام الجميع ؟ ».

حدّقت اليسون خطواتها وهي تلاحظ الأعين الفضولية، ثم قالت :

« لن تجرؤ على ذلك ؟ ».

أجابها بابتسامة عريضة :

« إذن انتظري حتى نصل قرب البيت... وعندها ستعرفين ! ».

التفتت إليه مبتسمة. هل نسي فعلاً الكلمات التي قالها في تلك الليلة ؟ لعله قصدها في وقتها فقط، أما الآن فقد أصبحت في خبر كان ؟ كانت يده دافئة في يدها، وهما يتحدثان عن العمل، وعن ميغ وبيل وعن ليلة الاحتفالات... لكنهما لم يذكرا نيال ماكين أبداً، وكأن لا وجود له البتة.

قال جوني عندما وصلا الى الباب الخلفي للبيت الكبير :

« سأحضر شخصياً كي آخذ الطعام عند الظهر، فهل عندك

مانع؟ ».

ردّت اليسون بلطف :

« سيكون ذلك شرفاً كبيراً لنا ».

مدّت يدها لتتناول الاغراض منه وقد استدارت نصف دورة للذهاب الى الكوخ، وفجأة قال لها بصوت هامس :

« اليسون؟ »

التفتت اليه متسائلة، فاذا به ينحني تجاهها ويضمها في عناق قصير. وفي هذه اللحظات بالذات، ظهر نيال خارجاً من موقف السيارات وهو يحمل بعض الأخشاب. نظر اليهما دون أن يتكلم، ثم اختفى داخل البيت بسرعة.

ودعها جوني ودخل الى البيت، تاركاً اياها مع سؤالين لم تستطع ايجاد أجوبة عليهما. هل كان جوني يعرف أن نيال في موقف السيارات؟ وهل عانقها عمداً في ذلك المكان بالتحديد؟

أمضت اليسون بقية ذلك النهار في تصميم وخياطة فستان خاص بها، في حين كان اندريه جالساً بالقرب منها يتأمل بذهول مواد الخياطة المختلفة. وعندما تأخر الوقت، قررت الاخلاد الى النوم والراحة قليلاً على أمل أن تنجز الفستان في اليوم التالي. استيقظت صباح يوم الجمعة كالمعتاد. وبعد وقت قصير حضر اندريه برفقة أبيه الذي لم تلمح منه سوى كتفيه وهو يغادر المطبخ من الباب الخلفي. وما ان رآها أندريه حتى أسرع يحتضنها والفرحة العارمة تغمر كل قسمات وجهه. قال لها :

« وافق أبي على اصطحابي الى الجزيرة غداً. لقد شاهدنا أمس معاً بجانب القارب، وقرر أن يأخذني فيه ».

هزت اليسون رأسها بلطف. كان نيال هو الشخص الذي أطل من النافذة اذن، ولعله لاحظ الحسرة في عيني ابنه وهو يتأمل القارب فحّن قلبه له.

« سألته إذا كان من الممكن أن يأخذك معه، فقال ان الآنسة ماكاي مشغولة جداً ولا تستطيع أن ترافقنا ».

ردّت اليسون بابتسامة خفيفة :

« أجل. أنا مشغولة كثيراً. ربما أفعل ذلك في يوم آخر. والآن هل تريد

الخروج في نزهة قبل أن نعود لمواصلة الخياطة؟ ».

التمعت عيناه فرحاً وهو يهز رأسه موافقاً.

وشعرت اليسون ببعض الارتياح لأن نيال قد بدأ يحمل مسؤوليته كأب على محمل الجد.

مر الصباح مثل أي صباح آخر في موسم العطلات. ويوماً بعد يوم، بدأ اندريه يتغلغل في التفاصيل الحميمة لحياة اليسون، التي راحت تتساءل وهي تحتسي فنجان القهوة بينما اندريه يحاول اجبار الكلب على الجلوس لتناول قطعة من البسكويت، عما اذا كان نيال مسروراً لقرار اغلاق المدرسة بعد عطلة رأس السنة. ودون أن تدري سكبت القهوة الساخنة على آلة الخياطة. نظفتها بسرعة وهي تتساءل ماذا بي هذه الايام؟ فهي تعرف أنها متعبة خاصة ان النوم جافاها طيلة الأسبوع الماضي، وقد بدأت الدوائر السوداء تظهر تحت عينيها. وفكرت أن عطلة هادئة بعيدة عن شيلبيغ وكل سكانها يمكن أن تفيدها كثيراً. ولكنها لا تريد مغادرة القرية خوفاً من حدوث اشياء غير سارة خلال غيابها. من غير المعقول أن ينتزع منها نيال أكثر مما أخذ حتى الآن، ولكن كل شيء ممكن مع شخص مثله. وفجأة تذكرت حلماً شاهدته ليلة البارحة. حلمت انها عادت من المدرسة فوجدت الكوخ خالياً وبارداً، وعندما صرخت بأعلى صوتها سمعت نداء من البيت الكبير فأسرعت راكضة الى هناك وكأنّ آلاف الاثقال تعيقها عن المشي. ولما وصلت بعد مشاق كثيرة رأت أمها تستقبلها على الباب الخارجي كما في الأيام الماضية. في الداخل وجدت القاعة الرئيسية وقد تغيرت تماماً، ولاحظت أن أمها ترتدي زياً هو الزي نفسه الذي ترتديه جسي التي دخلت الآن لتسأل اليسون اذا ما كانت راغبة في فنجان من الشاي... ثم استيقظت مذعورة والعرق الغزير يتصبّب من كل انحاء جسدها.

عادت السيدة ماكاي ظهراً لتناول طعام الغداء مع اليسون وجسي. وقبل تقديم الحلويات ، قالت السيدة ماكاي :

« سوف يعملون في تهديم جزء من جدار غرفة الرسم تمهيداً لاقامة باب خاص. لذلك انشغلت طيلة الصباح بنقل اللوحات الى مكان أمين ».

سألتها اليسون :

« هل تحتاجين الى مساعدة؟ أنا وأندريه يمكن أن نساعدك بعد الظهر اذا رغبت؟ ».

نظرت أمها مبتسمة :

« أتمنى ذلك. فهناك لوحات كثيرة أريد نقلها. بالاضافة الى ذلك، فأنا لم أعد أراك كثيراً في الآونة الأخيرة ».

وتدخلت جسي قائلة :

« وسأقدم لكما الشاي بنفسي عند الساعة الثالثة والنصف ».

وهكذا كان. فبعد أن انتهى الغداء، انتقل الثلاثة الى غرفة الرسم الملحقة بالبيت الكبير. واندمجت اليسون في العمل بحيث نسيت الوقت تماماً الى أن قال اندريه :

« أريد أن أشرب؟ ».

نظرت اليسون الى ساعة يدها فوجدت أنها قاربت الساعة الرابعة، قالت له :

«يبدو أن جسي نسيتنا، فهيا بنا نحضر الشاي ».

عبرت اليسون واندريه الغرف والقاعات واحدة بعد الاخرى وهي تتوقع في أية لحظة أن تعثر على جسي غارقة في حديث لا ينتهي مع أحد العمال، بينما الآخرون ينتظرون الشاي ولما اقتربت من الكوخ سمعت صوت أزيز ابريق الشاي على النار، فأسرعت راكضة ونفسها تخبرها بوقوع حادث خطير. للحظة الاولى اعتقدت أن المطبخ يحترق، لكنها اكتشفت بعد اطفاء الغاز أن بخار الماء هو الذي يحدث صوتاً في المطبخ دالاً على أن الابريق يغلي منذ مدة طويلة.

ركضت الى الداخل تاركة اندريه خلفها، وقلبها يخفق بشعور هو مزيج من الخوف والقلق. لم تستطع أن ترى شيئاً في المطبخ بسبب البخار، لذلك انتقلت الى غرفة الجلوس وهي تصيح :

« جسي... جسي ».

فجأة سمعت انيناً خافتاً من مكان ما في الداخل، فأحست قلبها يسقط بين قدميها هلعاً. وسرعان ما لمحت جسي مكومة قرب الباب والى جانبها سلم خشبي يروي تفاصيل ما حدث. ركعت اليسون بالقرب من العجوز المسكينة ومسحت على وجهها قائلة :

« ايتها العزيزة جسي. استلقي في مكانك دون حراك. سأطلب مساعدة فورية ».

ثم قامت نحو الصبي المذعور المنتظر في الخارج قائلة :

« أسرع واحضر أباك فوراً... وأمي أيضاً ».

انطلق أندريه فوراً نحو البيت الكبير في حين قامت اليسون بوضع أريكة تحت رأس جسي دون أن تجرؤ على النظر الى قدمها اليسرى التي كانت مطوية بشكل مفجع. ابتهلت اليسون أن تصل المساعدة بسرعة وأن لا تكون القدم مكسورة فعلاً. وفجأة مدت جسي يدها الى اليسون قائلة بصوت باك :

« كنت أتناول بعض المعدات عندما تحطم السلم الخشبي. وآخر شيء أتذكره صوت ابريق الشاي وهو يغلي ».

شدت اليسون على يدها قائلة :

« لا بأس عليك. لقد ذهب أندريه لاحضار أمي ونيال. لحظة وأحضر لك غطاء دافئاً ».

في هذه الاثناء كان نيال قد وصل برفقة جوني. ومن خلال النظرة التي شاهدتها على وجهه، ادركت اليسون أن قدم جسي مكسورة فعلاً. التفتت الى جوني متسائلة :

« هل عرفت أمي بالحادث؟ ».

ردّ جوني بصوت خافت :

« أجل، لقد ذهب اندريه لاخبارها بعد أن أخبرنا، وجهك شاحب اللون يا اليسون ».

« أنظر الى قدمها إنها مكسورة ».

تدخل نيال الذي كان يتفحص القدم قائلاً :

« هل هناك طبيب في هذه المنطقة؟ ».

اجاب جوني :

« أجل، هل تريدني أن أحضره؟ ».

« لا، الأفضل أن ننقلها الى هناك. أرجو أن تحضر السيارة الى الباب الخلفي. وأنت يا اليسون عليك بتجهيز مجموعة من الوسائد والاغطية ».

ثم التفت الى جسي متابعاً :

« لا تقلقي يا عزيزتي، بعد قليل ستكونين على خير ما يرام، فأنا معتاد على مثل هذه الاصابات. »

بعد حوالى عشر دقائق ذهب الرجلان بجسي الى طبيب القرية، وبرفقتهما السيدة ماكاي التي أصرت على أن تكون معهم. أما اليسون فقد ظلت في البيت مع اندريه تنتظر عودتهم على أحر من الجمر. وبعد نصف ساعة من الانتظار رن جرس الهاتف، فأسرعت اليسون تجيب وقلبها يرتعش قلقاً.

٨ ـ عناق في الممر

كان جوني على الطرف الآخر من الخط، وقد بدأ كلامه قائلا :

« أود أن أخبرك أنهم توجهوا الى أينفرينس ».

أجابت بصوت متوتر قلق :

« لماذا؟ ماذا حدث ».

« ذهبنا الى عيادة الطبيب، لكنه كان مشغولاً في ولادة احدى نساء القرية ولم نستطع الوصول اليه. قامت زوجته باعطاء جسي حقنة مهدئة وسألتنا إذا كنا نريد استدعاء سيارة اسعاف... غير أن نيال فضّل أن يأخذها الى المستشفى بنفسه توفيراً للوقت ».

« وأين أمي الآن؟ ».

« ذهبت معهما أيضاً. لقد طلبت مني أن أخبرك أنها ستتصل بك هاتفياً من المستشفى فور حصولها على معلومات جديدة... ربما بعد عدة ساعات ».

شعرت اليسون بالألم عندما تصورت المسافة الطويلة التي يجب أن تقطعها جسي وهي في مثل هذه الحالة.

ثم جاء صوت جوني مجدداً :

« كما طلب مني نيال أن اسألك اذا كان بامكانك رعاية اندريه حتى يعود ».

« طبعاً... طبعاً، ان سيارتك هنا، فهل ستعود لأخذها؟ ».

« كلا. وأرجو أن تطلبي من لوري أن يقودها الى ستراتكوزان على أن يتبعه ايان في سيارتها... فهذا يوفر عليّ الكثير من الوقت ». تردد قليلا

قبل أن يضيف بلهجة غريبة : « الحقيقة أن نيال أصر على ذلك رغم استغرابي الشديد؟ ».

لكن فكر اليسون كان مشغولاً بأمور أخرى فلم تهتم بالمعنى الذي انطوت عليه كلماته. أسرعت تعطي التعليمات للأخوين كاميرون، ثم عادت الى الكوخ وأعدت وجبة خفيفة لها ولأندريه. حاولت أن تشغل نفسها بمشاهدة التلفزيون ثم بالقراءة، ثم عادت الى التلفزيون... ولكن نظرها كان معلقاً بالهاتف. من المؤكد أن أمها لن تتصل قبل الساعة الثامنة على الأقل، فالمسافة الى المستشفى بعيدة. ومع ذلك ظل قلقها مرتبطاً بمكالمة هاتفية ملحة.

وعند الساعة الثامنة والنصف رن جرس الهاتف، وكانت السيدة ماكاي على الطرف الآخر :

« اليسون يا حبيبتي، أعتذر لأنني لم اكن قادرة على الاتصال مبكراً. لقد تركنا جسي ترتاح في سريرها الآن ».

« كيف وضعها؟ ماذا قالوا؟ ».

« لم يعرفوا بعد. لقد صوروا قدمها وذراعها بأشعة اكس، وبعد قليل تظهر النتائج. اليسون... ».

قاطعتها متسائلة :

« ماذا؟ ».

« لقد قررت البقاء هنا. اتصلت بميغ فدعتني لتمضية الليلة عندهم. فهذا أقل ما يمكن أن أفعله من أجل جسي التي ليس أهل أحد غيرنا ».

« طبعا يجب أن تبقي الى جانبها. هل تريدين أن أضع اندريه في الفراش هنا؟ ».

« نيال ينتظرني في الخارج هل أدعك تتحدثين اليه؟ ».

ردت اليسون بسرعة :

« ليس من الضروري، فقط بلغيه أن اندريه مرتاح معي. وارجوك أن تنقلي تمنياتي القلبية الى جسي. ولا تنسي أن تتصلي بي غداً ».

ودعتها أمها وأغلقت الخط. أعادت اليسون السماعة من طرفها وهي تشعر بالارتياح على الأقل لأنها عرفت أين يمكن أن تتصل بأمها إذا دعت الظروف.

عادت الى اندريه وأخبرته أن بامكانه قضاء الليل معها.

فسألها وقد علت الابتسامة وجهه :

« هل يمكن أن ينام راستي بجانبي؟ ».

ضحكت اليسون وقالت :

« سنرى بعد قليل. والآن جاء وقت النوم، فهيا نغتسل ونقرأ قصة جميلة... ثم الى الفراش ».

بلغت الساعة الحادية عشرة ليلا واليسون ما زالت ساهرة تشاهد فيلماً تلفزيونياً طويلاً. كان المطر ينهمر غزيراً في الخارج، أمّا الداخل فكان دافئاً ومريحاً. في احدى الزوايا رقد راستي، في حين كان اندريه يغط في نوم عميق في غرفة اليسون بانتظار أن يأتي والده ويأخذه صباحاً.

انتهى الفيلم التلفزيوني، فوقفت اليسون استعداداً للنوم عندما سمعت قرعاً خفيفاً على الباب. نظرت الى الساعة فوجدتها قد شارفت على الثانية عشرة، اقتربت من النافذة لكنها لم تستطع أن ترى شيئاً.

عادت الطرقات تتجدد بقوة اكثر مما أيقظ راستي الذي هبّ واقفاً وهو يهزّ ذيله بتوتر. امسكت اليسون بطوق راستي وتوجهت نحو الباب قائلة :

« من هناك؟ ».

« أنا نيال ماكين ».

فتحت الباب، كان واقفاً تحت المطر الغزير. قالت له وقلبها يخفق بشكل غريب :

« كنت على وشك أن أنام ».

أجابها بهدوء :

« لن أؤخرك كثيراً. رجعت فقط لاعادة الأغطية. وما عليك إلاّ فتح الباب وسأحضرها من السيارة بنفسي ».

شرعت اليسون الباب وراقبته وهو يقطع المسافة القصيرة بين الباب والسيارة تحت المطر، ثم يعود حاملاً الأغطية والوسائد. قالت له بعد أن وضع حمولته فوق احدى الطاولات :

« كان من الممكن أن تعيدها في الصباح ».

« ربما، لكن أمك طلبت مني أن اطمئن عليك ».

كان صوته بارداً، لكن عينيه لم تفارقا وجهها لحظة. لذلك أحست

بالاحراج الشديد خاصة أنها كانت في ثياب النوم. وتمنت لو أنه يترك البيت بسرعة. وفجأة، تذكرت ما حدث ليلة البارحة عندما شاهد عناقها مع جوني.

فنظرته في هذه اللحظات تشابه نظرته بالأمس. لكن لماذا هي مهتمة الى هذا الحد؟ فحياتها ملكها، وليس له أن يتدخل في أمورها الشخصية. ومع ذلك ظلت تشعر بالانزعاج، وللتخلص من الورطة قالت :

«أنا بخير، وكذلك اندريه، سوف يكون مستعدا عند الصباح لمرافقتك الى الجزيرة- ثم اضافت- أرجو أن لا تقلق، فسأحاول أن ابدو مشغولة عندما تأتي لمرافقته».

التمعت عيناه غضباً عندما ادرك ما عنته بكلامها، ثم قال بهدوء :

«لا تقولي انك كنت راغبة في مرافقتنا؟».

ردّت على ابتسامته الساخرة بلهجة عنيفة :

«لو أن الرحلة مع اندريه لكنت وافقت بسرعة... لكنني جربت النزهة معك من قبل».

سألها بنعومة :

«ولن تجربي مرة اخرى؟».

«الرحلة الاولى لم تكن ممتعة على الاطلاق. صحيح أنني أحب الجزيرة، لكنها لم تعد ملكنا».

ثم تردّدت لحظات قبل أن تقول : «انني متعبة جدا».

تقلصت شفتاه وهو يقول :

«طبعاً تريدين أن أرحل. وما دمنا عاجزين عن الحديث كالناس المتمدنين، فمن الأفضل لي أن أرحل، في كل حال أنا لست جوني، اليس كذلك؟».

اجتاح اليسون شعور بالغضب والخجل من جراء النظرة الحادة المتفحصة التي صوبها نحوها من قمة رأسها الى اخمص قدميها. ثم سألته :

«وماذا تقصد بكلامك هذا؟».

أجابها بهدوء مثير :

«يمكنك أن تفسريه كما تريدين، ما دامت تصرفاتك أمام الناس على تلك الصورة».

قاطعته غاضبة :

«إذا كنت تعني ما حدث أمس، فدعني اؤكد لك أننا لم نكن في مكان عام. وما دمت تتسلل وتختبىء، فيجب أن تتوقع رؤية أمور يجب ألا تراها ابداً».

رفع حاجبيه مستغرباً :

«لم اكن متسللاً، بل كنت أعمل».

وفجأة تذكرت اليسون كلمات جوني الأخيرة على الهاتف، فقالت :

«الآن فهمت السبب الذي دعاك الى منع جوني من العودة لأخذ سيارته... فأنت لا تريده هنا».

وادركت اليسون أنها اصابته في الصميم عندما لاحظت تقلصات وجهه الغاضبة، لذلك تابعت قائلة :

«يجب أن اشكرك على جهودك المستمرة لحمايتي، لكنني اؤكد لك أنني لست بحاجة لمن يحميني من جوني، فهو رجل مهذب على الأقل».

«وأنا لست مهذباً؟».

أصبح صوته الآن أكثر حدة، مما أشعر اليسون ببعض الارتياح لأنها استطاعت جرحه أخيراً.

ردّت عليه بصوت قاس :

«أنت الذي أثرت الموضوع، ويمكنك أن تفهم كلامي كما تشاء».

سألها بلهجة جافة :

«وكيف هي طريقة الرجل المهذب في العناق؟ هكذا...».

وفجأة امتدت اليها ذراعه القوية وضمتها في عناق حار لكنه لطيف في الوقت نفسه واستغربت اليسون كيف أنها استمتعت بذراعيه واحست أن جسمها يتجاوب معه. لم يكن عناق جوني في مثل رقة وحنان وجمال عناق نيال. وبعد لحظات من التردد والحيرة، استطاعت أن تجتذب نفسها من بين يديه وتصرخ في وجهه قائلة :

«اخرج من هنا، هيا اخرج بسرعة».

غامت عيناه خلف سحابة سوداء وهو يرد بغضب :

«ليس قبل أن انتهي منك».

قالت بصوت حاولت أن يخرج خافتاً:

« اياك أن تمسني مرة أخرى ».

سألها بسخرية :

« خائفة؟ قد لا أكون رجلا مهذباً كما أشرت قبل قليل، لكنني لا استعمل القوة مع النساء. . . ابداً ».

أجابته قائلة :

« لكنك فعلت عندما عانقتني بالقوة ».

ردّ عليها بنعومة :

« عندي انطباع بأنك استمتعت بالعناق، على الأقل لم تحاولي منعي. والحقيقة انك كنت بحاجة إليه ».

ارتفع صوتها غاضباً وهي تقول :

« لديك طريقة غريبة في تفسير تصرفات الناس. عليك أن تدرك أنك لم تشتري عندما اشتريت البيت. فأتمنى أن تفهم هذا الأمر في المستقبل ».

وبهدوء وحزم، سارت نحو باب الكوخ وفتحته على اتساعه قائلة :

« وأنت لم تشتر هذا الكوخ أيضاً، فمن حقي بالتالي أن أطلب منك مغادرته. فهلّ تفضلت بالرحيل ».

ثم أضافت وهي تبتعد عن الباب :

«لم تطلب مشاهدة ابنك بعد؟ اليس من الأفضل أن تتأكد بأنه على ما يرام».

شعرت اليسون بخوف جارف وهي تشاهد نظرته الغريبة المسمرة عليها لذلك عضت على شفتها قائلة :

« إنه في غرفة نومي ».

انتظرت اليسون في القاعة الخارجية الى أن عاد نيال من غرفة نومها. . . وبرغبة عميقة في إيذائه بعدما جرحها عندما كشف مشاعرها، قالت له :

« المدرسة ستغلق بعد عطلة رأس السنة، وعندها سينتقل اندريه إلى ستراتكوران، وستكون سعيداً عندما تعرف أنني لن أكون معه بعد ذلك ».

توقف نيال في منتصف القاعة بينما كان في طريقه إلى الخارج ثم استدار ببطء شديد وعلامات الانفعال ظاهرة على وجهه. وسألها بغضب حاد :

« ولماذا أكون سعيداً ؟ ».

« هل تعتقد أنني لم الحظ موقفك عندما يكون اندريه معي ؟ لقد شاهدتك وأنت تراقبنا بينما كنا على الشاطىء قبل أيام. أنا لست مثلك، ولا أريد أن أسرق الأشياء والناس الذين تحبهم. فأنا احب اندريه لأنه ولد رائع، ويا للأسف فأنت لا تحبه ».

حاولت مغادرة القاعة إلى المطبخ خوفاً من الحقد البارد الذي ارتسم على وجهه لكنه استوقفها قائلاً :

« الأفضل أن تشرحي كلامك بالتفصيل، لأنني لن اغادر المكان قبل أن أحصل على إيضاح كافٍ ».

أحست اليسون أنه يقف خلفها، فاستدارت لمواجهته وقد امتلات نفسها بكل المشاعر المتضاربة التي اختزنتها منذ أسابيع، خاصة فيما يتعلق بموقفه من ابنه، قالت له :

«ساوضح لك الأمر، أنت تتصرف معه كرجل غريب، ولقد غرقت في العمل بحيث لم تقدّر وحدته وغربته. وحتى عندما تتكلم عنه تقول (الولد) و (اندريه) وليس (ابني اندريه) ألا تعتقد أنه يحس بذلك ؟ انه يمتلك قلباً حساساً ومفعماً بالحب، وهو يحتاج إلى رعاية واهتمام، انك. . . ».

وكادت تنفجر باكية لولا أنها أرادت أن تخرج كل ما في صدرها من مشاعر، لذلك تابعت تقول :

« وأنت لا تتحدث مطلقاً عن زوجتك، وعندما تذكرها تشير إليها بأسم (أم اندريه)».

قاطعها قائلاً :

« لعلي أقول ذلك لأنها ليست زوجتي ».

ذهلت اليسون للحظات، ثم استعادت رباطة جأشها متسائلة :

« هل تقصد أنك لم تكن متزوجاً منها ؟ ».

وقف أمامها بتحدٍ صامت :

« كلا ».

« إذن فهو. . . ».

تردّدت اليسون في إكمال جملتها، فتدخل نيال قائلاً :

« إنه طفل غير شرعي ؟ هل أنت خائفة من استعمال هذه العبارة ؟ أنني استغرب ذلك ».

« لقد فهمت ».

«لا اعتقد انك فهمت شيئا على الاطلاق. والحقيقة يا آنسة ماكاي أن الوقت قد حان لتلقينك بعض الحقائق الأساسية عن الحياة. والآن ساخبرك شيئاً لا يعنيك بتاتاً، ولكن لا بأس من معرفتك له، فلعله يساعدك على التفكير. اندريه هو ابني بالتبني، ابوه الحقيقي هو أخي دانكان الذي ارتبط بعلاقة عاطفية مع فتاة برازيلية. في حين كان مخطوباً لفتاة أخرى. وعندما قرر ترك البرازيلية، تبين له انها حامل. فعمد إلى دفع نفقة شهرية إلى الأم والابن دون أن يخبر زوجته الشرعية التي تنحدر من عائلة ثرية في الريو. وقبل أشهر عرف دانكان أن أم اندريه مريضة، لذلك طلب مني الذهاب لتفقد احوالها، ولما وصلت كانت الأم قد ماتت ووضع الابن في دار للأيتام ولقد رفضت عائلة الفتاة الاهتمام باندريه، خاصة انهم فقراء للغاية. . . لكنهم يريدون النفقة الشهرية التي تأتيه من أبيه. هذا الموقف القاسي أثار حفيظتي، وبعد جهد استطعت اقناعهم بأخذ اندريه من دار الأيتام ولقد لعب المال دوراً في هذا المجال. انني لست عاطفياً، لكن اندريه من لحمي ودمي. وعندما رأيته لأول مرة أدركت. . . ».

توقف نيال عن الكلام للحظات، ثم تابع بقسوة أشد :

«وها أنت تقولين انني اهمل اندريه وأعامله كغريب الى حد ما، اوهكذا كنت في بادىء الأمر. أما الآن، فأنا أتعلم كيف أكون اباً حانياً. لكنك لا تفهمين ذلك ما دمت ترين الأمور من جانب واحد. يبدو أنني فشلت بنظرك. لا بأس، سأحاول إصلاح الأمر. . . لذلك سآخذه معي الآن إلى البيت ».

بذلت جهداً كبيراً للنطق :

« أرجوك ألا تفعل. دعه في فراشه غافياً ومرتاحاً ».

لم تحرك الدموع في عينيها أية مشاعر في نفسه، لكنه هز رأسه قائلاً :

« لا بأس سأحضر باكراً لآخذه من هنا ».

غادر نيال الكوخ بخطوات سريعة حازمة من دون ان ينطق كلمة. أما اليسون فقد تسللت إلى غرفة نوم أمها وهي عاجزة حتى عن البكاء !

٩ ـ سقوط المطر

عند الساعة التاسعة تماماً، كان نيال يقف أمام باب الكوخ بانتظار ابنه، حاملاً في يده اليسرى سلة طعام ومرطبات، وفي اليمنى معطفاً واقياً من المطر لأندريه.

وجّه محيه الصباح الى اليسون قائلاً :

« شكراً لك لأنك رعيت ابني أمس. اندريه، عليك أن تشكر الآنسة ماكاي لاهتمامها بك ».

كان نيال جافاً وبارداً في تصرفاته معها، وكأنه غريب تماماً عنها. وعندما غادر البيت، وضع يده في يد اندريه الذي كان يقفز فرحاً.

وقفت اليسون عند النافذة تراقبهما وهما في طريقهما الى القارب. لقد اعتقدت انها تكره نيال ماكين، لكن اندريه كشف لها انها تكره نفسها فقط.

اتصلت بها أمها من منزل ميغ بعد قليل وأخبرتها أن صور الأشعة أظهرت عدم وجود كسور في ذراع وقدم جسي، وكل ما في الأمر أن عضلات القدم تمزقت وهي تحتاج الى عدة أيام من الراحة. سألتها السيدة ماكاي قائلة :

« جسي ستعود إلى البيت يوم الثلاثاء، واريد أن أعرف إذا كان عندك مانع في أن أبقى معها حتى ذلك الوقت ؟ ».

« لا مانع أبداً. على كل أنت بحاجة إلى الراحة بعد أسابيع طويلة من التعب والارهاق ».

« أشكرك يا حبيبتي، وأرجو أن تشرحي لنيال أسباب غيابي ».

« طبعاً. وسأتصل بك هذا المساء. أرجو أن تسلمي على جسي وتأخذي لها باقة من الزهور باسمي ».

بعد هذه المكالمة الهاتفية، أصبحت اليسون وحدها. وجدت نفسها تعيد التفكير في تصرفاتها. وتأكدت عندما أدركت انها كانت انانية في تعاملها مع الآخرين. لقد خاضت المعركة ضدّ أمها لأنها أرادت بيع البيت، وخاضتها ضدّ نيال ماكبين الرجل الذي غير المكان كله والذي تبنى ابن أخيه المنبوذ من كل الناس. فالتبني خطوة كبيرة حاسمة، لكنه لم يتردد في الاقدام عليها في حين اتهمته اليسون خطأ بأنه لا يهتم بذلك الطفل المسكين. اكتشفت ان امامها الكثير لتتعلمه، والدرس الأول كان الليلة الماضية، ربما كان الدرس الأخير!

وأدركت بعد فوات الأوان أن نيال رجل حقيقي ومهذب بكل معنى الكلمة. وإن كل المشاكل التي أثارتها في وجهه لم تستطع الحد من قوة ارادته أو تحطيم كرامته.

تجولت اليسون في البيت الفارغ متعبة ومنهكة القوى لأنها لم تنم إلاّ قليلاً، وبعد أن غادرها نيال الليلة الماضية كان البيت بحاجة إلى ترتيب عاجل، فجسي لن تستطيع العمل عندما تعود الى البيت.... وعلى اليسون أن تتولى مهمات التنظيف والترتيب والطهي طيلة الفترة المقبلة. وهكذا امضت اليسون نهارها في متابعة شؤون البيت.

في تمام الساعة السادسة جلست تتناول فنجاناً من الشاي وهي تحس بالتعب النفسي والجسدي على حد سواء. لقد حاولت شغل نفسها بالعمل المضني، ولكن ما ان ارتاحت حتى عاودتها الهواجس من كل حدب وصوب.

انهت فنجان الشاي وهي تتمنى لو أنها تستطيع الابتعاد عن المنطقة حتى تتمكن من اعادة دراسة الأمور بروية أكثر. وفجأة لمحت القارب يتهادى على صفحة الماء حاملاً نيال واندريه من رحلتهما الى الجزيرة. وقفت تتأملهما وهما يعبران الكوخ الى البيت دون أن يلتفتا الى حيث تقف. ماذا تتوقع غير ذلك؟ هل اعتقدت أن نيال سيأتي إليها ليخبرها عن الرحلة؟

ابتسمت بحزن عميق، وسارت نحو النافذة تتأمل القارب الراسي في مكانه المعتاد. ولمَ لا؟ حدّقت في القارب مجدداً، ان رحلة بحرية صغيرة

يمكن أن تساعدها على التخلص من الافكار والهواجس.

حزمت أمرها بسرعة، ثم توجهت مع الكلب نحو القارب. كانت السماء الصافية والغيوم القليلة المتناثرة لا تنذر بمطر غزير، وفي كل مكان طيور النورس بزعيقها الحاد. أدارت محرك القارب وهي تتأمل الجزيرة البعيدة. هناك تستطيع اليسون أن تفكر بهدوء، ولعلها تقدر على اكتشاف الأحاسيس الغامضة التي تضغط على فكرها وعقلها وروحها.

التفتت اليسون إلى الشاطىء، فلمحت سيارة نيال الزرقاء وإلى جوارها عدة أطفال يلعبون... تنهدت بصمت وعادت لتتأمل الجزيرة التي أخذت تتضح معالمها كلما أسرع القارب في سيره نحوها. وتساءلت اليسون عن مشاعر اندريه عندما دخل الجزيرة لأول مرة. لا شك أنه شعر بالسرور والاثارة والاستغراب، وأيضاً بالخوف من عتمة الجزيرة وغموضها.

وتمنت من كل قلبها أن يكون اندريه قد تمتع برحلته، فهي تريده أن يشعر بالسعادة الحقيقية بعد البداية التعيسة التي كانت عليها حياته في البرازيل. ورغم كل مشاعرها تجاه نيال، فهي متأكدة أنه قصد كل الكلمات التي اطلقها بمرارة الليلة الماضية. انه يحاول ان يكون أباً حقيقياً لاندريه، ولا شك انه سيكون أباً عادلاً ومحباً وليس قاسياً على الاطلاق... وحتى عندما كان صغيراً...

انقطع حبل أفكارها عندما لامس القارب رمال شاطىء الجزيرة. وفجأة اتضحت لها الأشياء التي كانت تثقل على نفسها وعقلها خلال الأيام القليلة الماضية، وأدركت بلمحة بصر لماذا كانت تخوض معركة شرسة ضد الجميع منذ أن عاد الى القرية.

أنساها الاكتشاف الجديد ما حولها، ووجدت نفسها تغادر القارب مع راسيتي، وتحث خطاها إلى الجانب الآخر من الجزيرة حيث المحيط الممتد إلى ما لا نهاية.

لم تستطع تحديد مشاعرها الجديدة، فهي تعرف لماذا قاومت بشدة دخول نيال إلى حياتها، ولماذا يخفق قلبها ويكاد يتوقف عن الخفقان كلما اقترب منها.

لقد كانت تصرفاتها مجرد دفاع يائس ضد قلبها الذي خانها بشكل واضح. الآن فقط بات باستطاعتها نطق الكلمات المتجمدة على شفتيها.

وعند طرف الجزيرة الآخر، أطلقت العنان لصوتها قائلة :

« انني أحب نيال ماكيين ».

غطت الدموع عيني اليسون وهي تعترف بأنها أحبت رجلاً لسنوات طويلة، وإن هذا الرجل يحتقرها ويعتبرها انانية. كم سيضحك ويقهقه عندما يعرف الحقيقة. لقد شاءت الظروف أن يأخذ قلبها رغم أنها حاربته بكل قوتها وسرعان ما عادت الى ذاكرتها كل الأشياء الصغيرة التي حاولت تجاهلها... وتذكرت امراً حدث قبل سنوات وسنوات، وكانت تتعمد تناسيه دائماً.

وقع الحادث في المدرسة عندما كانت في السادسة من عمرها، وإليك ونيال في الحادية عشرة، كانت الآنسة مارميكل المعلمة الحازمة قد غادرت قاعة الصف للحظات تاركة التلاميذة في دروسهم. وفجأة سقطت ورقة مبللة بالحبر على طاولة اليك الذي اتهم نيال على الفور. وكان من الطبيعي أن يندلع عراك حاد، حاولت اليسون أن توقفه قبل عودة الآنسة كارميكل. وفي خضم المعركة تلقت اليسون لكمة حادة القتها الى الخلف وهي تصرخ ألماً. وهنا توقف الصبيان عن القتال واقتربا منها بخجل. وفجأة انحنى نيال نحوها وانهضها متجاهلاً نظرات اليك والتلامذة الآخرين، ثم قال :

« أنا الذي أصابك يا اليسون. انني أعتذر لهذا الحادث العارض ».

ولم تلحظ اليسون على وجه نيال الصغير سوى القلق والاهتمام الحقيقيين. وبسبب ذلك ظلت الحادثة منزرعة في ذاكرتها وان كانت تحاول دائماً ابقاءها في الزوايا المعتمة.

لا فائدة من تذكر الماضي والندم على ما فات. ان اغلاق المدرسة سيعطيها فرصة للابتعاد عن شيلبيغ والتخلص من معظم متاعبها. عليها أن تقدم طلب انتقال الى اينفرنيس أو أدنبره، وهناك تحاول نسيان ما حدث، ومع الوقت ربما تنسى نيال ايضاً. فهي غير قادرة على تحمل رؤيته على بعد أمتار قليلة دون أن تعرف ما يفكر ... وأين يذهب... ستخبر جسي وأمها بقرارها عندما تعود. ولا شك ان جسي لن تستغرب خطوتها هذه، فالملاحظات التي ابدتها في مناسبات شتى كانت تشير إلى انها توقعت هذه النهاية...

نظرت اليسون الى السماء عندما احست بقطرات المطر تنهمر على يديها

ووجهها، فلاحظت ان الجوبات مليئاً بغيوم داكنة، وقد ازدادت البرودة وخيّم الضباب على الجزيرة كلها.

نهضت على عجل وسارت باتجاه المرسى وهي تشعر بالندم لأنها اتت الى الجزيرة في مثل هذه الظروف. وعندما وصلت إلى الشاطىء الآخر برفقة الكلب، فوجئت بأن المرسى خال... وبعد لحظات من الذهول، شاهدت القارب يسبح مع التيار باتجاه عرض البحر. وأدركت بعد فوات الأوان انها نسيت ربطه بالمرسى عندما ترجلت منه قبل قليل.

وهكذا فقدت الوسيلة الوحيدة التي تعيدها إلى البيت. وزيادة في الصعوبات والمشاكل، انفتحت ابواب السماء فجأة وانهمر المطر الغزير مصحوباً ببرق خاطف ورعد يصم الآذان...

١٠ ـ حب الى الابد

استظلت اليسون فروع شجرة وارفة الاغصان، وتساءلت عما اذا كان بامكانها السباحة حتى الشاطىء الآخر. في مثل هذه الظروف الجوية، يبدو الأمر صعباً. فالتيارات المائية قوية وجارفة وسوف تشعر بالانهاك قبل أن تقطع نصف المسافة. بدأت الاغصان تتكسر تحت وقع المطر الغزير، وأخذ البلل يصيب رأس اليسون وثيابها.

الحل الوحيد الآن أن تبحث عن ملجأ يقيها هذا المطر المنهمر. لذلك نادت على الكلب راستي وأسرعت معه باتجاه الكوخ. أما وسيلة العودة الى البيت، فهذه مسألة أخرى ستعالجها فيما بعد.

عندما وصلت اليسون الى الكوخ، خطرت على بالها فجأة صعوبة الموقف الذي وجدت نفسها فيه. اذ ليس في البيت احد يفتقدها او يشعر بغيابها. فاليوم هو السبت، والسيدة ماكاي لن تعود قبل يوم الثلاثاء.

اجتاحت الوحشة نفس اليسون التي فكرت ان أمها ستتصل هاتفياً هذا المساء ثم تعيد الاتصال مرات... دون أن يجيبها أحد. وسرعان ما اخذت المشاكل تظهر تباعاً، فهي لا تملك عيدان ثقاب لاشعال نار التدفئة، وليس هناك طعام في الكوخ و... تلفتت حولها بحثاً عن شيء مجهول. لا فائدة من اضاعة الوقت في البكاء والندم، بل عليها أن تبحث في الكوخ عن حاجات ذات منفعة، قبل ان تشتد حلكة الليل ويصبح من الصعب عليها أن تلمس موقع قدمها.

كان الكوخ فارغاً من الأثاث، ولا شيء فيه يوحي بأنه يصلح للسكن. جلست اليسون على السلم الخشبي الذي يوصل الغرفتين السُفْلَيين

بالغرفتين العلويتين واحتضنت الكلب راستي هامسة بصوت خافت:

« يبدو اننا سننام دون اكل هذه الليلة. انا آسفة لذلك، لكنني في الوقت نفسه سعيدة لأنك معي».

سيظل هذا اليوم راسخاً في ذاكرتها الى الأبد، ليس فقط بسبب المأزق الذي وجدت نفسها فيه فجأة، بل ايضاً لاكتشافها بأنها غارقة في الحب لأول مرة في حياتها.

جلست في الكوخ العاري تتأمل المطر الغزير المستمر في الخارج، لكن وجه نيال كان في كل مكان يملأ عليها مشاعرها وافكارها. ولم تجرؤ اليسون على اغماض عينيها، لأنها تعرف أن صورة نيال الغاضب الثائر كما كانت في الليلة الماضية راسخة في اعماق عقلها.

ازداد ظلام الليل بسرعة بسبب الغيوم التي اشتدت كثافتها. لم تكن اليسون تخشى الظلام، لكن شيئاً ما في هذا المكان المنعزل اشعرها بالتوتر... اذ كانت تحس أن اجيالاً من عائلة ماكاي، ومن عائلة ماكين ايضاً، تراقبها من خلف ألف ستار وستار.

ويبدو انها غفت قليلاً في جلستها غير المريحة تلك، وشاهدت حلماً غريباً فقد سمعت شخصاً ما يناديها ويكرر النداء عدة مرات. وكان الحلم قوياً مما ايقظ اليسون مذعورة لتجد ان الكلب راستي قد ذهب بعيداً. توجهت الى الباب صارخة:

« راستي... راستي ».

ومن حيث لا تدري سمعت صوت عواء راستي مصحوباً بصوت بشري ينادي:

« اليسون ».

اذن لم تكن تحلم، فالنداء حقيقي فعلاً. أسرعت خارجة غير عابئة بالمطر الغزير ولا بالعتمة الحالكة، ودموع الفرح تمتزج بحبيبات المطر المنسكبة... ولم تدر إلاّ وهي بين ذراعي الرجل الذي ظهر فجأة من وسط الظلام.

فتحت عينيها بعد لحظات لتفاجأ بأنها في احضان نيال نفسه. همست بضعف محاولة الابتعاد عنه:

« لا... هذا أنت؟ ».

اجابها بصوت مرتجف :

« ارجوك لا تقاومي، دعيني أسندك قليلاً ».

حدّقت اليسون في عينيه الغارقتين تحت المطر الغزير وبادلها هو النظرات نفسها. وهناك، في ذلك الليل الممطر... عرفا كل شيء.

لمس نيال وجه اليسون بحنان بالغ وهو يقول :

« اعتقدت أنك غرقت ».

« كنت في الكوخ لكن القارب... ».

قاطعها بلهفة :

« اعرف التفاصيل. لقد شاهدته سابحاً مع التيار، ثم شاهدت الثياب المنشورة في حديقتكم ما زالت تحت المطر... فادركت أن شيئاً خطيراً وقع لك ».

تمهّل للحظات، ثم أضاف قائلا وهو يحكم ذراعه حولها :

« كان عليّ التأكد أولاً، لذلك ذهبت الى الكوخ فلم اجدك أنت والكلب، عندها عرفت ما حدث ».

وفجأة دفن رأسه في عنقها وتابع يقول :

« في تلك اللحظات بدأ الكابوس المرعب. استعرت اول قارب وجدته على الشاطىء وأنا اتمنى أن تكوني في القارب الآخر... لكنني صعقت عندما وجدته خالياً ».

كان المطر قد بللهما تماماً، وتحولت ملابسهما الى اقنية للمياه الغزيرة. لكن اليسون لم تكن قادرة، بل لم تكن تريد الابتعاد عنه ولو للحظة واحدة، فقد استولت عليها كلماته المتلهفة القلقة وجدتها في مكانها... وبعد جهد استطاعت القول :

« انا آسفة، لقد اخطأت في عدم ربط القارب بالمرسى ».

قاطعها بحنان :

« هذا ليس مهماً. المهم يا اليسون اني وجدتك سالمة ومعافاة ».

ثم انحنى عليها وضمها في عناق دافىء غيبها عن المطر والليل وكل المشاكل السابقة. ولم تعد اليسون تشعر إلاّ بوجوده الطاغي الذي ملأ عليها كل حياتها.

قال لها بصوت متهدج :

« يجب أن نذهب، فأنت مبللة حتى العظام، ويجب أن أنقلك الى البيت فوراً ».

سارت اليسون بانصياع تام وهي لا تصدق ما يحدث لها. من غير المعقول أن يكون هذا هو نيال نفسه... ولكن المطر والليل والطريق الوعرة اكدت لها الحقيقة الجميلة الرائعة.

قال نيال وهو يساعد اليسون على ركوب القارب :

« سنأخذ قاربنا لأنه اسرع ».

استغربت اليسون كيف أنه استعمل كلمة «قاربنا» بدلاً من كلمة «قاربي» كما هو في الواقع. أدار نيال محرك القارب وأدار الدفة بعيداً عن الجزيرة في حين اشتد المطر بشكل لا يصدقه عقل. وفي خضم من المياه، وقف نيال خلف دفة القارب وعيناه لا تبتعدان عن عيني اليسون. ولم يكن الاثنان بحاجة الى اية كلمات، فالنظرات الخاصة روت الحكاية كلها.

عندما وصلا الى الشاطىء، كانت اليسون ترتجف بشدة بحيث اضطر نيال الى حملها بين ذراعيه طيلة الطريق الى الكوخ. وضعها في مقعد مريح ثم قال :

« هيا بدلي ملابسك، وسأذهب الى البيت الكبير لأبدل ملابسي ايضاً ».

انصاعت لكلامه فوراً، ودخلت الى غرفتها للتخلص من الثياب المبللة. وعندما عادت بعد دقائق وجدته قد سبقها الى المطبخ وراح يجفف الكلب الذي رقد بين يديه هادئاً مستسلماً.

رفع نيال عينيه الى اليسون، ثم ربت على رأس راستي قائلا :

« هذا يكفيك ايها الكلب العجوز ».

وبعد أن ابتعد الكلب، توجه نيال الى اليسون التي كانت تنتظره، وأمسك يديها بيديه القويتين الدافئتين. وهمس :

« اليسون؟ ».

« نعم يا نيال ».

« انت تعرفين كل شيء اليس كذلك؟ ».

ولم تستطع اليسون ان تبعد عينيها عن عينيه، واكتفت بالقول :

« اجل، انني اعرف ».

وفجأة غرقا في عناق حار كان كافياً للتعبير عن المشاعر التي تملأ قلبيهما.

وفي وقت لاحق جلسا في مقعد مريح امام النار بعد أن التهما عشاء خفيفاً.

كانت ذراع نيال تحتضن اليسون بقوة وكأنه يخاف أن تفلت من بين يديه مجدداً سألها :

« متى عرفت؟ ».

« اليوم ظهراً. ذهبت الى الجزيرة كي أفكر في مشاكلنا، خاصة انني اعتقدت أنك تحتقرني بعد الذي حدث الليلة الماضية. كنت اخطط للهرب بعيداً عنك... الى أي مكان آخر ».

ابتسم بحنان لم تعهده من قبل، وقال :

« وهل اعتقدت أنني سأتركك ترحلين؟ آه يا اليسون، سأكون قاسياً بحق نفسي لو تركتك تفعلين ».

وضعت اصبعها على فمه مقاطعة :

« لا، انا التي كرهتك لأنك كنت تأخذ مني كل شيء، دون أن أدرك أنني كنت احارب الانجذاب المتزايد في نفسي نحوك. ولم اتأكد من حبي لك إلاّ عندما وصلت الى الجزيرة بعد ظهر هذا اليوم ».

ضحك نيال وهو يقول :

« أما أنا فاكتشفت مشاعري اليوم ايضاً. عندما عثرت على القارب خالياً ادركت انك كل شيء في حياتي- تردد قليلا قبل ان يكمل- طيلة السنوات الماضية كنت لا تبرحين عقلي، هناك في اعماق ذاكرتي ترقدين بهدوء وصمت... ودائماً كنت اتذكر لقاءنا الأخير في الغابة ».

لاحظ انها انفعلت قليلا فقال :

« اعتقد انك لم تنسي ذلك اللقاء ايضاً؟ ».

« وكيف استطيع النسيان؟ ربما بدأت القصة من هناك قرب الجدول المائي في ذلك المساء البعيد ».

« اجل بدأت هناك. كنت رائعة الجمال يا اليسون وأنت تأمرينني بكبرياء أن أغادر المكان... بحيث لم استطع مقاومة رغبتي في عناقك. ولسبب ما ارتبطت صورتك بالبيت الكبير. كنت دائماً أحب ذلك البيت واحسدكما انت واليك لأنكما تعيشان فيه، بينما أنا... ».

حثته اليسون على الكلام بعد ان تردّد قليلا، فتابع يقول :

« حسناً. هل تذكرين عندما سألتني لماذا قلت أن البيت الكبير يجب أن يكون ملكي؟ ».

تسارعت دقات قلبها وهي تجيب :

« إذا كنت غير راغب في الحديث، فلا بأس ».

« لا أبداً. لم تعد هناك اسرار بيننا الآن يا اليسون ».

نظر اليها بحب بالغ وتابع قائلا :

« عندما كنت صغيراً علمت ان هناك اكثر مما هو معروف عن الصراع العائلي بيننا. كانت العائلتان مرتبطتين في اكثر من مجال، كالتهريب مثلا. وفي احدى المرات كان جدك الأكبر وجدي الأكبر يقامران، وقد تخلى الحظ عن جدك الذي قامر بالبيت الكبير، وخسر. ولكن قبل ان تنتقل الملكية الى عائلة ماكين، وشى بعضهم بعمليات التهريب الى رجال الجمارك. فاعتقل جدي، اما جدك فقد ظل طليقاً. لم يكتشف أحد حتى الآن كيف حدثت الوشاية ومن هو الواشي ولماذا لم يعتقل جدك؟ ولكن يمكنك تصور الشائعات التي انتشرت في القرية وهكذا، عندما تعلق الشابان بالفتاة نفسها... اندلعت الاحقاد وعاد النزاع مجدداً ».

هزّت القصة مشاعر اليسون التي فغرت فمها دهشة، ثم قالت :

« اذن طيلة هذا الوقت! ».

قاطعها قائلا :

« كلا. الماضي ذهب من دون رجعة. كيف يمكننا اكتشاف الحقيقة بعد هذه السنين الطويلة؟ ما قلته كان مجرد كلام شاب مراهق ».

ابتسمت بحنان :

« انني افهم مشاعرك. فقد كنتما في عراك مستمر، من يدري؟ فلو ان النزاع لم يكن لأصبحتما صديقين حميمين؟ ».

ردّ بابتسامة مماثلة :

« ربما. لكن الحياة لن تكون ممتعة دون عراك ومنافسات. أنا لا أنسى ابداً تلك الأيام. آه كم غرت يا اليسون عندما كنت اشاهدك مع جوني... ».

« وأنا كذلك. طيلة الوقت كنت أقول لنفسي انني يجب أن لا أتعلق

بأندريه لأنه ابنك... انها غيرة من نوع مختلف».

«انه يحبك يا اليسون، ودائماً يتحدث عنك، ويسأل ما اذا كنت ستهتمين به عندما يكبر».

تنهدت بعمق قائلة:

«كنت على وشك...»

«أرجوك لا تقوليها. انني بحاجة اليك يا اليسون. لم أشعر في حياتي بالحاجة الى انسان مثلما أنا بحاجة اليك الآن. كل تصرفاتك جعلتني اثور واغضب بحيث عجزت عن الردّ إلاّ بالعناق».

ضحك مطولا قبل أن يضيف قائلاً:

«لكنني لم ادرك تأثير العناق عليّ شخصياً».

«لا تقلق يا نيال. سأظل في ستراتكوران اطول مدة ممكنة كي...»

«لم أقصد التعليم. انني اريدك زوجة لي واماً لاندريه في البيت الكبير في آخر الحياة».

«آه كم أحبك يا نيال».

وتولى العناق الحار التعبير عن المشاعر التي عجزت الشفاه عن تحويلها الى كلمات...